جهود الأستاذ الدكتور/عبد العظيم المطعنى

في الكشف عن إعجاز القرآن من خلال كتابه

"دراسات جديدة في إعجاز القران"

دكتور/ إبراهيم عطية إبراهيم عيسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

إبراهيم عطية إبراهيم عيسى
قِسْم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق ، جامعة الأزهر ، مِصْر .
البريد الالكتروني :ibrahimeisa.el.8.283@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة بالعرض والتحليل جهود الأستاذ الدكتور/عبد العظيم المطعنى في كتابه "دراسات جديدة في إعجاز القرآن" وهى تبرز أهم تجليات التجديد البلاغي في قضية الإعجاز البياني للقرآن من خلال كتابه ورصد منهجه في تحليل مفردات القرآن، لاسيّما أن اصطفاء القرآن للمفردات من أجلّ المقاصد التي تتظاهر عليها سمات الإعجاز، فكما أن القرآن معجز بنظمه وتراكيب جمله واستعاراته وتشبيهاته وبديع آياته فهو معجز بكلماته وانتخاب مفرداته، فمدخل المفردات في الإعجاز مدخل بلاغي؛ لأن كل لفظة قرآنية استعملها القرآن من أوجه البلاغة المحققة للإعجاز بما فيها من تناسب مع المقام والسياق الذي وردت فيه.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز – التجديد – جذور – منهج – اصطفاء – المقصد – النظم.

The efforts of Prof. Dr. Abdel-Azim Al-Mutaani in uncovering the miracles of the Qur'an through his book "New Studies in the Miracles of the Qur'an"

Ibrahim Atiyah Ibrahim Issa
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Boys in Desouk, Al-Azhar University, Egypt.
Email: ibrahimeisa.el.8.283@azhar.edu.eg

Abstract:
This paper aims to thematically and analytically study the efforts made by Professor/ AbdelAzeem AlMataani in his famous book, "New Studies in Qur'an inimitability (al-'i'jāz)". The paper will show the new dimensions in the rhetorical innovation in the inimitability of Qur'an. This will be done through shedding light on his book and method in analyzing the vocabulary of Qur'an. The selection of Qur'an to its vocabulary is miraculously written in in its sentence structure, metaphors and similes. Furthermore, the entrance of vocabulary is a rhetorical one as each word used is rhetorically achieving inimitability because it suits the context of set up it is used in.

Keywords: Miracles - Renewal - Roots - Method - Selection - Destination - Systems.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى أتباعه في الحق إلى يوم الدين، وبعد:

فمن الأمور المسلم بها أن لكل أمة رموزها وأعلامها، الذين أجالوا عقولهم وقصروا أنفسهم على البحث والتنسك في محرابه، ومن حقّهم علينا أن نبرز جهدهم وجهادهم وجلدهم المستمر في خدمة اللغة واستنباط المسائل وتقرير الأحكام إيمانا منّا بتقدير ما أنجزوه في شتى فروع العلم والمعرفة.

وهذا البحث يتناول بالعرض والتحليل أثرا من آثار عالم جليل ضرب بسهم وافر في ميدان الدراسات اللغوية والبيانية لا سيما بلاغة القرآن الكريم؛ ألا وهو الأستاذ الدكتور/عبد العظيم المطعنى الذي يُعدُّ واحدا من قلائل مثقفينا، ومن أنبغ مبدعينا الذين قادوا حركة تجديد الفكر؛ ليواكب روح العصر ويلائم مُسْتجدَّاته.

لقد كان الشَّيْخ – طيّب الله ثراه– أحد الأعلام البارزين الذين أدركوا ما يحاك للعربية في عصرها الحاضر؛ فجرّد سيفه وشنّ حملته المباركة لقمع هذا الزحف الطاغي الذي بات يدور في فلك كتابات كثير من الكُتَّاب، وتصدّى له بكل حزم ومهارة، فأبطل كثيرا من الشبهات التي أثارها المشككون حول لغة القرآن الكريم، إيمانا منه بأن لغة القرآن هي أحد ثوابت هذا الدين، وأنّ الدفاع عنها واجب شرعي.

وهذه الدراسة تبرز أهم تجليّات التجديد البلاغي عند الشَّيْخ في قضيّة الإعجاز البياني للقرآن من خلال كتابه ورصد منهجه في تحليل مفردات القرآن، لا سيّما أن اصطفاء القرآن للمفردات من أجلّ المقاصد التي تتظاهر عليها سمات الإعجاز فكما أن القرآن معجز بنظمه وتراكيب جمله وباستعاراته وتشبيهاته وبديع آياته، فهو أيضا معجز بكلماته واختيار مفرداته، إذا فمدخل المفردات في الإعجاز مدخل بلاغي، ومن ثمّ فإن كل لفظة قرآنية استعملها

القرآن من أوجه البلاغة المحققة للإعجاز بما فيها من تناسب للمقام والسياق الذي وردت فيه.

والذي أغراني بهذا الموضوع ودعاني إلى الكتابة فيه أنه يبرز جانبا من آفاق التجديد في تلك القضية التي استفرغت "جهدا جهيدا، وما زالت المناهج- على كثرتها- تحاول أن تقدم جديدا"(١) وقد شمل منهج الشَّيْخ من الجدّة والأصالة ما يدعو إلى فتح أبواب جديرة بالدراسة في هذا المجال.

والبحث في سعيه لتحقيق هذه الغاية قد اشتمل على مقدمة وتمهيد، أعقبهما جهتان مثّلت كلٌّ جهةٍ منهما مبحثا من مباحثه، اشتمل كلٌّ مبحث على عدد من القضايا الفرعية التي تآزرت جميعها على أن كلمات القرآن مختارة بعناية، ثم جاءت الخاتمة لتلخص البحث وتنوّه بأهميته، أما المقدمة: فقد تضمّنت أهميّة الموضوع ودوافع اختياره، وأما التمهيد فهو بعنوان: جذور البحث في ألفاظ القرآن، وفيه عرضٌ موجز لبحث المفردات القرآنية عند العلماء، كيف تشعّبت جذورها وتشابكت أغصانها حتى غدت مثمرة مورقة.

وأمّا المبحث الأول فقد تكفّل بعرض: نبذه مختصرة عن الشَّيْخ ورصد أهم آثاره، وما احتواه كتابه، والهدف من تأليفه، ومنهجه فيه، ثم جاء المبحث الثاني تحت عنوان: تجليات التجديد البلاغي عند الشَّيْخ في كتابه؛ ليقف على جانب من أسرار الإعجاز اللغوي والبلاغي في انتخاب مفردات القرآن من خلال عرض الشَّيْخ لألفاظ القرآن التي يُظنُّ بها التشابه أو الاتحاد في المعنى، وفيه عدة عناوين: أولها: الإعجاز في انتخاب المفردة القرآنية وأثر السياق في اصطفائها، وثانيها: تتبّع اشتقاقات المادة الواحدة واستكشاف علاقتها بالمقصد والهدف، وثالثها: استكشاف علائق الأنساب بين معاني

(١) في البلاغة القرآنية أسرار الفصل والوصل للدكتور/ صباح عبيد دراز صـ٣، مطبعة الأمانة، ط الأولى١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

المفردة الواحدة، ورابعها: ارتباط دراسة المفردات بنظرية النظم، وأما الخاتمة فتضمّنت ما أسفرت عنه الدراسة من نتائج وتوصيات.

وبعد فإني لآمل أن يحقق هذا البحث شيئا مما قصدت إليه، وأن ينال حظا مما تعلقت به نفسي، وإلا فحسبي أنه خطوة في طريق جاد.

وأخيرا اعترف بأنني لم أستقص كل ما يمكن أن يقال في هذا المجال، على أمل أن يهيئ الله باحثين آخرين يقطعون أشواطا أخرى فيما قَصُرَت به همّتي، والله ـ تعالى ـ أسأل أن يلهمنا الصواب والإخلاص في القول والعمل، وأن يجنبنا الزلل؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمهيد

جذور البحث في ألفاظ القرآن:

مع كثرة الدراسات التي تناولت بحث مفردات القرآن، وتنوع مناهجها واختلاف مشاربها، إلا أننا سنحاول استجلاء خيوط هذا المنهج في إنتاج العلماء، وليس بوسعنا – في هذا المقام – أن نعرض لجميع الدراسات التي تعرضت لبحث مفردات القرآن، ولكن يمكننا أن نصنِّف تلك الدراسات إلى اتجاهين أساسيين لكل منهما أسسه ومنهجه في الدراسة مردفين كلّ اتجاه بمجموعة من الدراسات التي تمثِّله مع التنويه ببعض الدراسات الحديثة في هذا الشأن.

أما الاتجاه الأول: فيمثله تلك الدراسات التي اهتمت بتفسير ألفاظ غريب القرآن[1] وبيان مدلولاتها، دون النظر إلى إحكامها في مبناها أو معناها، ومناسبتها لموضعها الأشكل بها والأنسب لها، وقد بدأ هذا الاتجاه في مرحلة مبكرة من نزول القرآن، ولعل أول تفسير وصلنا لألفاظ غريب القرآن هو التفسير المنسوب لابن عباس–ﷺ– فقد اشتمل تفسيره على مسحة لغوية في فهم معنى المفردة القرآنية؛ لأنه كان يستشهد عليها بورودها في لغة العرب، وقد ورد عنه أنه قال: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا حرف من القرآن

(١) غريب المعنى :غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بُعد ومعاناة فكر، وغالبا ما يكون ذلك في الكلام الفصيح العالي، على نحو ما ذكر الإمام الخطابي: أن اللفظ الغريب هو البعيد عن الفهم، كما أن الغريب من الناس هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، ومنه قولك للرجل إذا نحيّته وأقصيته: اغرب عني، أي: ابعد ، ينظر: غريب الحديث للإمام الخطابي، بتحقيق /عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ١/٧٠،٧١ ،نشر معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ، ط الثانية ١٤٢٢هـ٢٠٠١م.

رجعنا إلى الشعر فالتمسنا معرفة ذلك منه"[1] ولهذا عُرِف عنه ما بما يسمى "مسائل نافع بن الأزرق"[2].

وعلى يد ابن عباس-رضي الله عنه-تخرّج كثير من المفسرين أمثال: مجاهد، وعكرمة، وطاووس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وغيرهم ممن أسهموا في بيان معانى ألفاظ القرآن وشرح ما خَفِي من مفرداته وغَمُض من معانيه، إلى أن جاء أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢٠٩هـ)ـ فألف كتابه (مجاز القرآن) وكان أوّلَ كتاب وصلنا يحمل هذا الاسم، وإن كان لا يقصد من كلمة (مجاز) معناها البلاغي، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبّر به عن معناها فكل تعبير وردت عليه الآية وأدّت به معناها هو مجازها.

ومن الدراسات التي تمثّل هذا الاتجاه أيضا كتاب (معاني القرآن)لأبى زكريا يحيى بن زياد الملقب بالفرّاء (ت: ٢٠٧هـ) وكتاب (تأويل مشكل القرآن) لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) وهو من أوائل الكتب التي اهتمت بإثارة بعض المباحث بطريقة غير مسبوقة في الترتيب

(١) ينظر :الإتقان في علوم القرآن ٢٦/٢ بتحقيق عبد الرؤوف سعد، ط المكتبة التوفيقية(بدون)

(٢) ذكر السيوطي في الإتقان :أن هذه المسائل وجهها نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر لعبد الله بن عباس عن بعض معاني ألفاظ القرآن التي استغلق عليهم فهمها لغرابتها عليهم شريطة أن يدلل على كل لفظة قرآنية بما يوافقها من كلام العرب فأجابهما عما سألا عنه، وعرفت هذه المسائل باسم مسائل نافع بن الأزرق. ينظر: الإتقان ٢/ ٢٧، ٥٧، كما عقد لها باباً في المزهر سمّاه: التثبت في غريب القرآن والحديث، وقد جمعت الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن هذه المسائل في صيّبها العذب: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق، نشرته دار المعارف سنة ١٣٩١هـ١٩٧١م.

والتبويب، وقد ألّفه ابن قتيبة ليثبت به إعجاز القران ويردَّ به على الطّاعنين على كتاب الله وقضائهم عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم [١].

ولعل أهم ما يميز كتاب ابن قتيبة فيما يتّصل بالمفردات القرآنية أنه اهتم بالمعاني المختلفة للفظ الواحد، وتبعه كثير من الدارسين الذين قدموا جهودا لغوية حول علاقة اللفظ بالمعنى كما فعل الزركشي في (البرهان) والسيوطي في (الإتقان) و(معترك الأقران في إعجاز القران) ومنهم من اهتم ببحث الأصل اللغوي للمفردة القرآنية بطريقة منظمة ومفهرسة كما فعل الراغب في (المفردات) وتابعه الفيروزابادى في كتابه (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) ومعظم هذه الدراسات تستقصى معاني المفردة القرآنية ذات الجذر اللغوي الواحد دون النظر إلى إحكام موقعها ودلالتها ودقّة معناها وحسن اختيارها وتوظيفها في النظم القرآني محاولة منها في بيان وجوه الإعجاز في استعمال المفردات.

أما الاتجاه الثاني: فيمثله تلك الدراسات التي انصبّ جهدها في دراسة مفردات القرآن بغية التعرف على طرائق القرآن في استخدامها "وهى مبثوثة في أولى دراسات القرآن لدى أبى عبيدة على قلّة ،ثم كثرت هذه الإشارات واللمحات الفنية في كتب الإعجاز والتفسير بالرأي، وذلك بطرائق مختلفة نتيجة الوجه المدروس للمفردة، وتميز نظرة الباحث وثقافة عصره "[٢].

ولعل أبا عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) أول من فجّرَ ينبوع البحث في ألفاظ القرآن – من بعد إشارات أبى عبيدة – بجانب قضية المعاني القرآنية وبيان وجوه الإعجاز ودلائله التي جاءت مبثوثة في

(١) ينظر: سبب تأليف ابن قتيبة هذا الكتاب في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، بتحقيق/ السيد أحمد صقر صـ٢٢،٢٣ مكتبة دار التراث، ط الثانية ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

(٢) جماليات المفردة القرآنية د/أحمد ياسوف صـ٣٧،٣٨ دار المكتبي للطباعة ، ط الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

سفريه العظيمين (البيان والتبيين) و(الحيوان) بالإضافة إلى مجموعة الرسائل المنسوبة إليه، وكتابه المفقود (نظم القرآن) وكلها تكشف عن مذهبه في إعجاز القرآن والاحتجاج لنظمه وبديع تأليفه.

وإذا كان المقام هنا لم يسعنا لتفصيل القول في ذلك إلا أننا نستطيع أن نقول: إن بحث ألفاظ القرآن جاء – في الأصل– متفرّعا عن قضيّة الإعجاز القرآني، وأن الجاحظ كان أول من تنبّه إلى دِقّة "مواقع الألفاظ في الذكر الحكيم وكيف أن الكلمة المرادفة لأخرى لا يصح أن تستخدم مكانها؟ بل إن صيغة الكلمة ينبغي ألا تتغير وأن تظل على صورتها من الإفراد أو الجمع"(١)

وفى هذا يقول الجاحظ: "وقد يستخفُّ النّاسُ ألفاظًا ويستعملونها، وغيرُها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكُر في القران (الجوعَ) إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدْقِع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون (السّغَب) ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك المطر؛ لأنك لا تجد القرآنَ يلفِظُ به إلا في موضع الانتقام، والعامّة وأكثرُ الخاصّة لا يَفْصِلون بين ذِكر المطر وذِكر الغَيث، ولفظُ القرآن الذي عليه نزلَ أنّه إذا ذَكَر (الأبصارَ) لم يقُل الأسماع، وإذا ذَكر سبع سموات لم يقل الأرَضين، ألا تراه لا يجمع الأرضَ أرَضين، ولا السمعَ أسماعًا، والجاري على أفواه العامةِ غيرُ ذلك، لا يتفقّدون من الألفاظ ما هو أحقُّ بالذكر وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعضُ القرّاء أنّه لم يجد ذكرَ لفظ النِّكاح في القرآن إلا في موضع التزويج"(٢).

ولا نغفل – في هذا الصدد – عن إشارات المفسرين كالزمخشري والرازي وغيرهم ممن اختصوا المفردة القرآنية ببالغ اهتمامهم وعظيم عنايتهم، وتعد

(١) البلاغة تطور وتاريخ د/شوقي ضيف صـ٥٠،٥١ دار المعارف، ط التاسعة .
(٢) البيان والتبيين بتحقيق/ عبد السلام هارون ١/٢٠ مكتبة الخارجي بالقاهرة، ط السادسة ١٤١٨هـ١٩٩٨م.

وقفات الزمخشري على جمال المفردة رائدة في هذا الباب، وسنعرض أنموذجا واحدا ليقوم دليلا على ذوقه الرفيع ومعرفته الواسعة بأبعاد لغة القرآن وحسن استبطانها، فهو حينما يتعرض لتفسير قوله تعالى:﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤] يقول:" فإن قلت: لم عبّر عن الإتيان بالفعل، وأىُّ فائدة في تركه إليه؟ قُلْتُ: لأنه فعلٌ من الأفعال، تقول: أتيت فلانا، فيقال لك: نِعمَ ما فَعلتَ، والفائدة فيه أنه جارٍ مجرى الكناية التي تُعطيك اختصارًا وَوَجازةً عن طول المكنّى عَنْه"(١) فهو يلفت إلى شمولية الفعل ﴿**تَفْعَلُوا**﴾ واتساع مدلوله، فهو وارد على سبيل الكناية، والتعبير به أخصر وأبلغ من التصريح بالإتيان أو غيره، فعموم الفعل يدل على منتهى عجزهم عن معارضة القرآن مهما تعددت قواهم ووسائلهم البشرية.

أما إذا ما انتقلنا إلى العصر الحديث فإننا لا نعدم من العلماء المعاصرين من حاول ولوج هذا الباب واستنكاه بعض أسراره ، وكان أول من نبّه إليه– فيما أعلم –الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي في كتابة (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) حين عرض لبعض التراكيب القرآنية ملفتا إلى طريقة القرآن في نظمها داعيا إلى التأمل في مواقع حروفها وحركاتها(٢).

ودراسة الرافعي – فيما أظنُّ – كانت فتحا جديدا لهذا الباب في العصر الحاضر حتى وجدنا من بعده إشارات لبعض الباحثين المعاصرين في ثنايا كتبهم اهتمت بتذوق المفردة القرآنية، والمقارنة فيما بينها مما يُظنُّ أنها

---

(١) الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل للزمخشري، شارك في تحقيقه د/ فتحي عبد الرحمن حجازى١/٢٢٣ مكتبة العبيكان ط الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ١٥٢ وما بعدها دار الكتاب العربي بيروت ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.

مترادفة، وكان في طليعة ذلك ما كتبته الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" في كتابها القيّم (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق) حيث عقدت فصلا لدلالات الألفاظ وسر الكلمة(١) قامت فيه بدراسة بعض المفردات القرآنية واستظهار دلالاتها دون أن تعتدَّ بسماتها الجمالية أو دواعيها البلاغية داخل النسيج النظمي للقرآن.

ثم جاءت دراسة الدكتور/ أحمد بدوى (من بلاغة القرآن) لتبرز أسباب الجمال في الجملة القرآنية منطلقة من اللبنة الأولى منها وهي الكلمة، فعقد فصلا سمّاه "تخيّر اللفظ" عرض فيه لبعض المفردات القرآنية منبّها إلى طريقة القرآن في اصطفاء ألفاظه وتخيُّر مفرداته مبرزا ما بينها من فروق دقيقة في دلالتها(٢).

ومن المحاولات الرائدة في هذا الباب محاولة أستاذنا الدكتور/محمد الأمين الخضري (الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن) وهى تقوم على فقه وبصر بأسرار الكلام العالي، تتبعّ فيها الشَّيْخ – طيّب الله ثراه – ما خالف الظاهر من صيغ الإفراد والجمع في القرآن الكريم، وكشف عن أوجه الإعجاز فيها مبرزا دقائق الفروق بين المفردات القرآنية، كما عرض لتناسق بعض الصّيغ في مشتبه النظم القرآني في مطارحها المتعددة(٣).

---

(١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق صـ١٩٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن د/ أحمد بدوى صـ ٥١، ط نهضة مصر ٢٠٠٥م.

(٣) ينظر: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم د/محمد الأمين الخضري صـ ٥ مطبعة الحسين الإسلامية، ط الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

ولا نغفل في هذا الصدد عن دراسة أستاذنا الدكتور/ عبد الفتاح لاشين (من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة) وهى من الدراسات المهمة التي ركزت على استعمالات الكلمة القرآنية وبيان سر اختيارها، ومدى وفاؤها بالغرض الذى سيقت من أجله، وتوصلت إلى أن الكلمة في القرآن أشبه بالعضو في جسم الإنسان، يؤدى وظيفته عندما يكون في موضعه، فإذا زايله إلى موضع آخر تغير حاله واختل توازنه(١).

ومن الدراسات الجادة التي تندرج تحت هذا الباب ما قام به سعادة الأستاذ الدكتور/ عبد الله عبد الغنى سرحان من جمع الألفاظ التي لم يتكرر جذرها اللغوي على أيّ صورة من الصّور في القصّة القرآنية، وقَصَرها على القصّة القرآنية؛ لكثرتها وشيوعها وأنها تنصبُّ حول موضوع واحد مترابط الأجزاء، ومع أن باب الفرائد القرآنية قد أشار إليه القدماء كابن أبى الإصبع والسيوطي وغيرهما من دارسي علوم القرآن إلا أن هذه الدراسة اتّسمت بالدقة والشمول، وإن كان قد فاتها بعضُ الفرائد في قصص الأنبياء لم تتعرض لها، كإيراد الفعل ﴿**أَقْبِلْ**﴾ فريدا في قصة سيدنا موسى عليه السلام لما خاطبه ربُّه حين ولّى مدبرا ولم يعقب وقد رأى عصاه تهتز كأنها جان: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**﴾ [القصص: ٣١] وقد توصلت هذه الدراسة إلى نتائج مهمة، منها: اتساق عدد الفرائد في قصص الأنبياء بحسب ورود القصة في النظم القرآني طولا وقصرا؛ ولهذا كان عدد الفرائد في قصة موسى أكثر من أيّ قصة أخرى(٢).

---

(١) ينظر: من أسرار الإعجاز القرآني صفاء الكلمة صـ ٢٤٠ دار المريخ للنشر بالرياض طبعة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

(٢) ينظر: الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية د/ عبد الله عبد الغنى سرحان صـ ٣١٠ نشره مركز تدبُّر للاستشارات التربوية والتعليمية، ط الأولى ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م

ومن المحاولات المهمة أيضا تلك المحاولة التي قام بها الدكتور/أحمد ياسوف في دراسته: (جماليات المفردة القرآنية) وهى عبارة عن أطروحة جامعية تقدَّم بها إلى كلية الآداب جامعة حلب لنيل درجة "الماجستير" بإشراف الدكتور/نور الدين عتر رئيس قسم علوم القرآن والسنة في جامعة دمشق، وقد عرض فيها لبعض الجوانب الجمالية للمفردة القرآنية محاولا الوقوف على الأبعاد الفنية لصيغ المفردات وخصوصية التعبير القرآني، وكان من أهم نتائج هذه الدراسة أن جمال المفردة يتحقق من خلال أبعاد ثلاثة: بُعد مرئي من حيث التصوير، وبُعد سمعي من حيث متعة الأنغام، وبُعد نفسى من حيث إمتاع الوجدان وموافقة المواقف(١).

ومن المحاولات أيضا في هذا المجال (دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني) وهى أطروحة جامعية تقدم بها الدكتور/ محمد ياس خضر الدُّوري، لنيل درجة "الدكتوراه" من كلية التربية جامعة بغداد بإشراف الدكتور/خليل بنيان الحسّون، وهى قائمة على نفى الترادف في القرآن، وقد تناول الباحث فيها دلالات فروق الألفاظ القرآنية من زوايا ثلاث: فروق الألفاظ، وفروق الأبنية، وفروق الألفاظ المتقاربة الأصوات(٢) يطول بنا الحديث إذا تتبعنا كل الدراسات التي طرقت هذا الباب، ووقفت على كثير من جوانبه، ولكن حسبنا ما أشرنا إليه من مناهج متعددة في دراسة المفردة القرآنية لتقوم دليلا على ولوج هذا الباب واستنكاه بعض أسراره.

(١) ينظر: جمالية المفردة القرآنية صـ٣٢٧.

(٢) ينظر: دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني د محمد ياس خضر الدُّوري صـ ٣٤٣، دار الكتب العلمية، ط الثانية ٢٠١٤م.

المبحث الأول

محتوى الكتاب ومنهجه التجديدي

سنتناول في هذا المبحث – إن شاء الله تعالى – نبذة مختصرة عن الشَّيْخ وعرض أهم آثاره، ثم نعرّج على بعض القضايا التي تتعلق بموضوع الكتاب ومحتواه ورصد منهجه التجديدي في تحليل المواد القرآنية، وهو منهج سديد انفرد به الشَّيْخ وحده، وطرافة هذا المنهج تتمثل في أنه يستعرض ألفاظ القرآن التي يُظنُّ أنها مترادفة تأسيسا على وضعها اللغوي، ويبرز بلاغة القرآن في استعمالها وإيثارها في موضعها دون غيرها مما يضاهيها أو يشبهها في الاستعمال، وهو في كل ما عالجه من مفردات يقدم رؤية البلاغي المستنير الملتزم بقواعد المنهج السليم المشفوع بنفحات الرب الرحيم.

أولا: الشَّيْخ حياته وأهم آثاره

ولد العلامة الدكتور/عبد العظيم إبراهيم المطعني[1] في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر ذي الحجة عام ألف وثلاثمائة وتسع وأربعين من هجرة المصطفى – ﷺ– الموافق للخامس عشر من شهر مايو عام ألف وتسعمائة وواحد وثلاثين للميلاد بجزيرة المنصورية بمدينة أسوان، ظهر نبوغه مبكرا فتعلم القراءة والكتابة، وأتمّ حفظ القرآن الكريم وهو صغير في كتّاب القرية، ثم التحق بالأقسام الليلية للتعليم غير النظامي وظل بها سنتين حتى حصل على شهادة محو الأميّة بتفوق، ثم التحق بمعهد القاهرة الأزهري فحصل منه على الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات دراسية، ساعده على ذلك حبه للعلم وسعيه الحثيث في تحصيله، ثم التحق بعد ذلك بمعهد القاهرة

(١) اعتمدت في هذه الترجمة على ما أمدّنى به الشَّيْخ في حياته، وقد كنت طلبت منه ترجمة لسيرته المباركة منذ أمد ونسيت ذلك ففاجأني بها في يوم من الأيام عن طريق البرق في عام٢٠٠٠م تقريبا فسررت بذلك أيما سرور واحتفظت بها في مكتبتي الخاصّة.

الثانوي وكانت مدة الدراسة فيه خمس سنوات، وبعد حصوله على الشهادة الثانوية التحق بكلية اللغة العربية بالقاهرة وتخرج منها عام ١٩٦٦م ثم التحق بالدراسات العليا تخصص البلاغة والنقد في العام نفسه، وحصل على درجة التخصص "الماجستير" في البلاغة والنقد عام ١٩٦٨م عن بحثه "سحر البيان في مجازات القرآن" ثم توّج هذا كله بحصوله على "الدكتوراه" عام ١٩٧٣م عن سفره النفيس – ومؤلفاته كلها أسفار – (خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية).

عُيّن بعد ذلك مدرسا في قسم البلاغة والنقد عام ١٩٧٤م، ثم حصل على درجة "أستاذ مساعد" عام ١٩٨١م، بعدها أُعِير إلى جامعة الملك عبد العزيز لمدة عامين، ثم حصل على درجة "الأستاذية" عام ١٩٨٦م، وأُعِير بعدها إلى جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة لمدة عامين آخرين، ثم أُعِير إليها مرة أخرى لمدة خمس سنوات حتى عام١٩٩٣م، وأخيرا أعير إلى جامعة البحرين عام ٢٠٠٣م ليعمل بها كأستاذ زائر لمدة عام واحد.

وقد شارك الشَّيْخ – رحمه الله – بقلمه في كل اتجاه ورَادَ القولَ في كل مذهب؛ ليردّ كيد الكائدين وحقد المتآمرين على الإسلام والمسلمين، كما شارك في العديد من اللقاءات الإذاعية والتلفزيونية، وألقى المحاضرات والندوات في المراكز الفكرية والثقافية، وكتب العديد من المقالات في الصحف والدوريات المحلية والدولية.

من آثاره العلميــة:

وقف شيخنا الجليل نفائس عمره وعرائس دهره على خدمة الدّين متمثلة في الدفاع عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومن أجل ذلك بذل وقته وجهده في شرح مبادئ الإسلام وقيمه وتقريبها للناس، يظهر هذا جليا فيما أودعه من دُررٍ وأسفار، حيث نافت مؤلفاته على الستين كتابا، والقراءة الواعية

لأسفاره تدل على أنه قد وزّع جهده المبارك على أربعة محاور، نقتطف منها المؤلفات التالية:

المحور الأول– دراسته للقرآن الكريم والسنة النبوية، ومن آثاره في هذا المجال:

– خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، وهو رسالته للدكتوراه، طبعته مكتبة وهبة.

– المجاز في اللغة وفى القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه، طبعته مكتبة وهبه في جزأين.

– دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في توظيف اللغة، مكتبة وهبة.

– التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، أربعة أجزاء طبعته مكتبة وهبة.

– ساعة مع القرآن، دراسة موجزة في أساليب القرآن البيانية، مكتبة وهبة.

– الشبهات الثلاثون المثارة ضد السنة النبوية، عرض وتفنيد ونقض، مكتبة وهبة.

– أخطاء وأوهام في أضخم مشروع تعسفي لهدم السنة النبوية، مكتبة وهبة.

المحور الثاني – دراسته البلاغية والأدبية والنقدية باعتبارها تخصصه الدقيق ومنها:

– البديع من المعاني والألفاظ، مكتبة وهبة.

– علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية، مكتبة وهبة.

– من قضايا البلاغة والنقد، مكتبة دار الفتح للإعلام العربي.

– التشبيه البليغ هل يرقى إلى درجة المجاز؟ مكتبة دار الأنصار.

– التشبيه والتمثيل بين الإمام عبد القاهر والخطيب، مكتبة دار الأنصار.

– من أسرار النظم في القرآن الكريم، مكتبة الأندلس بطنطا.

– الهمزية في مدح خير البرية رائعة الإمام البوصيري في المدائح النبوية، مكتبة وهبة.

– لطائف وأسرار الرسم العثماني للمصحف الشريف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

المحور الثالث – دراسته للشريعة الإسلامية، ومن آثاره في هذا المجال:

– الفقه الاجتهادي الإسلامي بين عبقرية السلف ومآخذ ناقديه، مكتبة وهبة.

– عقوبة الارتداد عن الدين بين أدلتها الشرعية وأوهام المرجفين، مكتبة وهبة.

– أوربا في مواجهة الإسلام الوسائل والأهداف، مكتبة وهبة.

– سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية، مكتبة وهبة.

– مبادئ التعايش السلمي العالمي في الإسلام منهجا وسيرة، الفتح للإعلام العربي.

المحور الرابع – الكشف عن الحقائق الإسلامية الصحيحة في مواجهة تفنيد حجج المشككين ودحض أوهامهم الزائفة، ومن آثاره في هذا المجال:

– افتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد، مكتبة وهبة.

– حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ثلاثة أجزاء، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

– مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، مكتبة وهبة.

– الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، طبعته دار الوفاء.

وفاته:

أُصِيبَ الشَّيْخ في نهاية حياته بالمرض فغالب المحن وصارع الشدائد، وعلى الرغم من ذلك لم تلن له قناة، ولم يخفق له صوت، ولم يرتعش قلمه في يده إلى أن لبّى نداءَ ربّه في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب عام ألف وأربعمائة وثمان وعشرين من هجرة المصطفى – ﷺ – الموافق للثلاثين من شهر يوليو عام ألفين وثمانية للميلاد، ولم يكن أمره ينتهى بمجرد رحيله

عن دنيا الناس، ولكنه باقٍ بآثاره وما تركه في نفوس الناس من ذكرى طيبة، فرحم الله الشَّيْخ على ما قدّم من علم أفاد الناس وزودهم بالكثير من العلوم والمعارف.

ثانيا: مادة الكتاب ومحتواه

نظم الشَّيْخ عقده الثمين (دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في توظيف اللغة) فكان القرآن الكريم هو المادة التي بنى منها صرح هذا الكتاب، وفيه من صيِّب فكره واطراد خاطره ما يشفى غُلّة الباحث عن دقة الكلم القرآني وبلاغة نظمه، وهو يشتمل على ثلاثمائة وثلاثين صفحة، تناول الشَّيْخ من خلالها قضية ما زالت تبسط سلطانها على ساحة البحث البلاغي على كثرة ما سُطِّر فيها قديما وحديثا ألا وهي قضية "الإعجاز اللغوي والبلاغي للقرآن".

وهذه الدراسة تشتمل على أربعين مادة لغوية من مواد القرآن المتشابهة، أو التي يُظنُّ بها الترادف مبرزة طريقة القرآن في استعمال تلك الألفاظ، مبينة علل ورودها في مواضعها التي وردت فيها دون غيرها مما يشبهها أو يرادفها، مستأنسة بالسياقات القرآنية المختلفة في إيراد تلك المواد، فالسياق القرآني هو الذي يستدعى التعبير باللفظ- دون سواه – في موطنه الذي يرد فيه.

وبهذا يكون للدراسة من اسمها أزكى نصيب وأوفاه، فالجدَّة تتمثَّل في طرافة العرض ودقَّة المعالجة حيث تعرض المواد القرآنية من خلال استعمال القرآن لها، وتحاول- جاهدة مخلصة- عرض الإعجاز القرآني في ثوبٍ جديد، قوامه التطبيق العملي، واستجلاء واقعية الإعجاز من داخل نظم القران نفسه، ولا شك أن النظر في لغة القرآن بهذا الاعتبار هو الخطوة الأولى في الكشف عن إعجازه وبلاغته، أما تلك المناهج التقليدية التي تصف الإعجاز من

الخارج، وتكتفي بوصفه دون التمثيل له فقليل ما تستخرج لآلئه المكنونة وجواهره الثمينة من أعماق نظمه البديع.

وبهذا تميزت دراسة الشَّيْخ عن غيرها من الدراسات التي سبقتها في هذه القضية، ولعل اقتصارها على المواد الأربعين التي تكفّلت بدراستها وإجالة النظر في سياقاتها المختلفة معزوٌّ إلى تنوع مفردات القرآن وتشعبها، فكل مفردة وردت مقتضى لحال مخصوصة لا يسد غيرهُا من ألفاظ اللغة مَسدَّها؛ لذا فهو يكتفي بطرح المنهج من خلال المواد التي تضمّنتها دراسته، وإن كان قد وعد بإنجاز جزء ثان مكمّل لتلك الدراسة ولكن الأجل قد حال بينه وبين تحقيق ما يريد.

وعلى أية حال فإن تلك المواد المدروسة على الرغم من قلتها إذا ما قيست بوفرة مفردات القرآن الكريم بصفة عامة أوفت بالمطلوب في رسم المنهج وتأصيل قواعده، فقد أرتنا إلى أي مدى استعمل القرآن أدوات اللغة استعمالا أمثل؟ وأبرزت ما لها من دور عظيم في استجلاء سمات الإعجاز، وهذا بلا شك ينبئ عن جهد كبير بذله الشَّيْخ في تلمس ما وراء تلك الاستعمالات القرآنية من بيان رائق، وبلاغة عالية لا نجدها في كلام البشر مهما علا كعبه في حسن البيان وفصاحة اللسان، رافق ذلك باع طويل وصبر دائب وتأمل واع وفهم متأن لكلام السلف مع صلاح النية وسلامة القصد حتى خرجت الدراسة في هذه الصورة البهية.

ثالثا: الهدف من تأليف الكتاب

لعل المتأمل فيما كتبه الشَّيْخ يجد أن البلاغة القرآنية هي أبرز جانب في شخصيته باعتبارها تخصصه الدقيق التي نال بها درجة العالمية (الدكتوراه) وعليها تدور معظم مؤلفاته، ولا غرو فإنّ له مع كتاب الله رحلة ممتعة وتاريخا حافلا تظهر فصوله من خلال ما كتبه حول بلاغة القرآن بدءا من صيّبه العذب (خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية) – وهو رسالته التي تقدم

بها لنيل درجة الدكتوراه – ومرورا بكتابه (المجاز في اللغة وفى القرآن الكريم بين الإجازة والمنع) و (التفسير البلاغي للاستفهام) وانتهاء بسِفْره النفيس الذى بين أيدينا الآن، وهو (دراسات جديدة في إعجاز القرآن) وقد ضمّنه خلاصة فكره وجميل سعيه، وحسبنا ما نرى فيه من نهج علمي قويم، وفكر هادف، وفهم واع، وأسلوب مبسّط يناسب أفهام العامّة قبل الخاصّة(١)

والحقُّ أن دافعا نبيلا وباعثا عظيما هو الذى حمل الشَّيْخ على تأليف هذا الكتاب، وهو أنّه أراد أن يقدّم منهجا جديدا في إعجاز القرآن، إذ رأى أن الدراسات المتعلقة بالإعجاز منذ بدأ البحث في هذا المجال – وإلى الآن – يغلب عليها التعميم، وتركن إلى القليل من التمثيل والشواهد، كما أنها يغلب عليها وصف الإعجاز من الخارج وتحديد الوجوه التي كان بها القرآن معجزا، ومن ثمّ تميزت دراسته باقتصارها على مفردات القرآن التي استعملها في بناء جمله وتراكيبه، والنظر في لغة القرآن بهذا الاعتبار هو الخطوة الأولى في الكشف عن أسرار الإعجاز البلاغي اللغوي(٢).

وأوّل ما يستوقفنا في بناء المنهج البلاغي لدى الشَّيْخ في معالجته للمفردة القرآنية رفضه لتلك للنظرة المجملة، والاستشهاد بأمثلة باتت تدور في فلك سائر كتابات مَنْ تعرضوا لدراسة الإعجاز، من مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ [البقرة: ١٧٩] وقوله تعالى: ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ [مريم: ٤] وقوله تعالى:﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ**﴾ [هود: ٤٤] فهذه الآيات وغيرها أقطاب جرى القائلون بإعجاز القرآن من جهة البلاغة في تداولها على

(١) أفصح الشَّيْخ في مقدمة كتابه أن أصل المادة العلمية لهذا الكتاب كانت عبارة عن مادة صوتية ألقاها عبر أثير إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة في برنامجه اليومي " لغة القرآن" ينظر: مقدمة كتابه صـ٦.

(٢) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في تطبيق اللغة، د/ عبد العظيم المطعني صـ٥،٦ مطبعة وهبة، ط الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

نوع من التقليد مع استواء سائر نظوم القرآن في البلاغة كان ينبغي أن توجّه إليها همم الباحثين عن إعجاز القران وإطالة النظر فيها، أما تلك النظرة المجملة التي تكتفي بوصف الإعجاز وصفا عاما لا يظهر دقائقه وأسراره فقد رفضها الشَّيْخ رفضا مطلقا؛ لأنها تلامس النظم من خارجه وتكتفي بإشارات خاطفه لا تظهر دلالات الألفاظ وإيحاءاتها، ولا تبين أسرار النظم وجمال التراكيب، ومن "أخطأه حسن النظم وحبكة الصياغة فقد أخطأت كلامه عناصر الحياة وجمدت فيه عروق البلاغة والبيان "[1].

إن المنهج الذي أراد الشَّيْخ أن يؤسِّسَ له يتجاوز تلك النظرة العابرة إلى التذوق القائم على التحليل الموضوعي لاستعمال المفردة القرآنية من حيث تتبُّع مواضعها مفردة أو مجموعة، ومن حيث قلّة استعمالها أو كثرته مع بيان سرّ إيثار النظم لها في موضعها دون غيرها مما يضاهيها أو يشبهها، فهي محكمةٌ غاية الإحكام في مبناها ومعناها ومقصدها مناسبةٌ أتم التناسب لسياقها، وأن هذا الاختيار أمر مطّرد في كل كلمات القرآن، لا تختص به آية دون آية أو سورة دون سوره.

كما لم يقلل الشَّيْخ من شأن بعض الدراسات المعاصرة التي انتهجت نهجا موضوعيا في مجال الإعجاز كدراسة الدكتورة /عائشة عبد الرحمن في كتابها "الإعجاز البياني" ولكنه في الوقت ذاته يجمل قصورها في محورين:-
الأول: أنها لم تذكر مناهج القرآن البلاغية في المواد اللغوية التي شملتها الدراسة، والثاني: أنها لم تهتم بالدواعي البلاغية لإيثار القرآن كلمة دون أخرى، أما دراسة الشَّيْخ فإنها وفّت بهذا كله مع الإشارة إلى دقائق الإعجاز

(١) الإعجاز في دراسات السابقين للأستاذ/ عبد الكريم الخطيب ١٤٣/١، دار الفكر العربي، ط الأولى ١٩٧٣م.

وخفاياه[1] وبهذا تميزت دراسته عن غيرها من الدراسات التي تضاهيها أو تشبهها.

رابعا: منهج الشَّيْخ في كتابه

من المعروف بداهة أن للقرآن منهجه الخاص في استخدام مفرداته، وهو منهج – بلا شك –حافل بالإعجاز اللغوي والبياني، فألفاظ القرآن كما يقول الراغب الأصفهاني "هي لُبُّ كلام العرب وزُبْدَتُه، وَوَاسِطَتُهُ وكرائمُهُ، وعليها اعتمادُ الفُقَهاء في أَحْكامِهِم وحِكَمِهم، مفْزَعُ حُذَّاقِ الشُّعرَاء والبُلغَاء في نَظمِهِم ونَثْرِهِم، ومَا عَدَاهَا وعَدا الألفاظَ المتَفرّعاتِ عنها والمُشْتقاتِ منها هو بالإضافةِ إليها كالقُشُورِ والنَّوَى بالإضَافةِ إلى أطَايبِ الثَّمرةِ، وكالحُثَالةِ والتِّبْنِ بالإضافةِ إلى لُبُوب الحِنْطة"[2].

انطلق الشَّيْخ من هذا الجانب مبرزا طريقة القرآن في استخدام ألفاظه ومفرداته، فتتبّع بعض المفردات القرآنية من خلال استعمال القرآن لها، فوجد أن كل لفظين مترادفيْن يدلان على معنى واحد في غير لغة القرآن يتغير معناهما في الاستعمال القرآني كما تظهر جِدّتهما وتمايزهما، فيفتق كل منهما بمعنى جديد ودلالة خاصة تنفى عنهما وصف الترادف حتى وإن كان اللفظان مترادفيْن في الوضع اللغوي فيظن المتعجل أنهما متماثلان.

والشَّيْخ بتأمُّله الواعي وفكره المستنير يدرك هذه الفروق الدقيقة التي توحى بالجدة وتمنع التماثل فيما يُظنُّ فيه الترادف، فأثبت أن كتاب الله لا ترادف في كلماته، فكل كلمة في موضعها تحمل معنى خاصا لا تسدُّ غيرها مسَدّها، ولهذا كان اختيار الكلمة القرآنية في موضع دون آخر وإيثارها دون غيرها من إعجاز القرآن، ولأن الشَّيْخ شديد الحساسية بموقع اللفظ القرآني من سياقه فإننا

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، بتحقيق محمد سيد كيلاني ٦/١ ط دار المعرفة بيروت.

نراه يلح على إبراز الخصوصيات الدلالية للصياغات المختلفة في المادة القرآنية الواحدة حين تتردد بين الاسمية والفعلية والمصدرية، فدلالتها الاسمية في لغة القرآن تختلف عن دلالتها الفعلية، ودلالتها المصدرية تختلف عنهما، يدلل الشَّيْخ على ذلك بالفعل " ختم " فيقول: "وجدنا القرآن المعجز الحكيم يفرق بين دلالة الصور الفعلية فيخصها بمقام لا تتعداه إلى غيره، ومن دلالة الصور الاسمية فيخصها بمقام مغاير تماما لمقام الصور الفعلية"[١] ويلمح من هاتين العبارتين أن فهم الشَّيْخ للغة الكتاب المعجز يقوم على فقه وبصر بأسرار هذه اللغة ومعرفة عميقة بأبعادها.

وبهذا المنهج الذي خصّصه لنفسه بدأ البحث في مفردات القرآن عارضا كل لفظين متماثلين – ظاهرا – في لغة القرآن ملتمسا ما بينهما من فروق دقيقة ودلالات غنيّة حميدة أرادها النظم الكريم، ولا يظهر ذلك إلا من خلال تتبع مواضع ورود الكلمة وما يشبهها في النظم الحكيم؛ ولهذا فهو يدرج اللفظين بإزاء بعضهما البعض ويتتبّع مواطن ورودهما، ثم يُدْلف إلى بيان منهج القرآن في استعمال كلّ كلمة منهما، وهو في هذا كله لم يدّخر جهدا في سبيل تبسيط طرحه حتى يتمكن قراء العربية من فهمه واستيعابه.

ولنا مع منهج الشَّيْخ في كتابه ملحظ آخر، وهو أنه حين بحث كل مفردة قرآنية من المفردات التي درسها إنما ركز النظر على هذه المفردة دون أن يلتفت إلى تحليل السياق ككل، وهذا لا يعنى أن الشَّيْخ قد أهمل الرؤية التحليلية للسياق، كلا!! ولكن متطلبات دراسته تقتضي بحث المفردات دون التركيز على الرؤية الكلية للسياق، بل تقتضي إبراز الأسرار البلاغية للتعبير بالمفردة القرآنية في السياق ذاته دون النظر إلى خصائص التراكيب وأسرار الجمل.

(١) السابق الصفحة ذاتها.

المبحث الثاني

تجليات التجديد البلاغي عند الشَّيْخ في كتابه

ستكون محاولتنا في هذا المبحث – بإذن الله تعالى – منصرفة إلى تتبُّع جوانب الإعجاز التي تناولها الشَّيْخ في معالجة المفردة القرآنية، فقد عقد موازنة بين كل لفظين تشابها في الاستعمال البشرى وجعلها إطارا لكل عنوان في دراسته، ولا شك أن الجانب اللغوي يأتي في مقدمة هذه الجوانب ويكون أولاها بالاهتمام؛ لإظهار علاقة المفردة باللغة، والمقارنة بين كونها داخل السياق القرآني وبين كونها منعزلة عنه، وكذلك علاقتها داخل النظم القرآني بالسياق الذى ترد فيه، والسرّ في انتخابها دون غيرها، وتناسبها مع الغرض أو المقصد الذى يرمى إليه الكلام، أو الفكرة التي يعالجها النظم الحكيم، وغير ذلك من قضايا بسطها الشَّيْخ في كتابه، وعالجها بأسلوبه المحكم ومنطقه الرصين.

أولا: الإعجاز في انتخاب المفردة القرآنية وأثر السياق في اصطفائها

مما اتفق عليه البيانيون ودارسو الإعجاز وعلوم القرآن أن النظم الحكيم يَنْتقى ألفاظه بدقةٍ متناهية؛ لما بين الألفاظ من فروقٍ دلاليّة دقيقة، فاللفظة القرآنية لا ترد في مكانها من النظم إلا إذا كان السياق يقتضيها، ولا تُستعمل الكلمة في تعبير إلا إذا كان القصْدُ استعمالها هي دون غيرها؛ لإرادة معنى فيها لا يوجد في سواها، فكل كلمةٍ في القرآن مستخدمة "بدقة بحيث تؤدى معناها المراد في إحكام شديد، يكاد السامع يؤمنُ بأن هذا المكان خُلقت له هذه الكلمة بعيها، وأن كلمة أخرى لا تؤدى المعنى الذى أفادته أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء"(١).

(١) من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة، صـ٦٠ ، وينظر: من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوى صـ٥١ .

وانطلاقا من هذا الإحكام الدقيق للمفردة القرآنية في مبناها ومعناها ومقصدها استطاع شيخنا أن يربط وجود الكلمة بسياق الآية التي وردت فيه، فبيّن حاجة المقام إليها، واستحقاقها تلك المكانة وتفرُّدها به، من ذلك ما جاء في تناوله لفعل الأمر ﴿**أَقْبِلْ**﴾ والموازنة بينه وبين الفعل ﴿**ائْتِ**﴾ أو (تَعَال) كما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٦١] أو غيرها مما ورد في الذكر الحكيم، ففعل الأمر ﴿**أَقْبِلْ**﴾ لم يرد في لغة القرآن إلا مرة واحدة في مخاطبة نبي الله موسى عليه السلام لما ولّى مدبرا ولم يعقّب حين رأى عصاه تهتزُّ كأنها جانّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**﴾ [القصص: ٣١].

يلفت الشَّيْخ إلى أن القرآن لم يستعمل (تَعَال) ولا (ائْتِ) ولا (هَاؤُم) مكان ﴿**أَقْبِلْ**﴾ ولا ﴿**أَقْبِلْ**﴾ مكان واحدة من نظائرها، ولا واحدة من نظائرها مكان الأخرى[1] وكان يمكن أن يكون النظم الكريم: يا موسى ائْتِ كما جاء في آية الشعراء ﴿**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشعراء: ١٠] أو تَعَال، أو هَاؤُم، أو غيرها، ولكن لأسرار بلاغية معجزة وحكم إلهية محكمة جاء النظم الحكيم ﴿**يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ**﴾ ولهذا الأسلوب بلاغته العالية، أرجعها الشَّيْخ إلى تطلُّب السّياق في هذا المقام استعمال هذا الفعل دون غيره فقال:" والنظر في المقام الذى ورد فيه فعل الأمر ﴿**أَقْبِلْ**﴾ يفيد أن هذا الفعل ورد مُقْتَضى لحال مخصوصة، تلك الحال هي: التَّلَبُّس بالتولي والإدبار السريع، ومَنْ كان هذا شأنه ﴿**وَلَّى مُدْبِرًا**﴾ فإن مطابقة الكلام لمقتضى حاله أن يقال له: ﴿**أَقْبِلْ**﴾ لا تعال ولا ائت ولا هاؤم، هكذا تعلمنا البلاغة القرآنية، ومن دقة المطابقة هنا بين الحال ﴿**وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾ وبين مقتضاه ﴿**أَقْبِلْ**﴾ أن ﴿**أَقْبِلْ**﴾ فيها أمرٌ بالإقبال وتغيير الاتجاه، وهو المطلوب، وفيها

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٢٥.

نهيٌ عن الإدبار الواقع فعلا في أثناء التكلم وصدور الأمر، وعلى هذا فإن فعل الأمر ﴿**أَقْبِلْ**﴾ مقيّد بهذه القيود، فكان هو التطبيق البلاغي المتعيّن في هذا الموضع، أما نظائره المذكورة من قبل فمع دلالتها على أصل المعنى: مطلق القدوم، فإن الخصائص الدقيقة التي أفادها ﴿**أَقْبِلْ**﴾ لا تُستفاد من أيّ من نظائره المذكورة"(١).

وبهذا التفصيل الدقيق الذى ذكره الشَّيْخ تظهر العلة في إيثار الفعل ﴿**أَقْبِلْ**﴾ في هذا السياق دون غيره، ولكنه في الوقت ذاته يدلف إلى شيء مهم، وهو أن ما ورد من نداء موسى عليه السلام تأنيسا وإعلاما بتأمينه في سورة القصص كان هو الأصل، وأن ما عداه من مواضعَ – ذُكرت في القرآن الكريم – عبارةٌ عن حكاية تكررت باختلاف أساليب القص القرآني، كما ورد في آية سورة النمل ﴿**وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [النمل: ١٠] ففي هذه الآية لم يذكر الفعل ﴿**أَقْبِلْ**﴾ على الرغم من اتحاد الموقف، وهو تأمين موسى عليه السلام من خوفه الذى لحق به وإعلامه بأنه من الآمنين.

أثار الشَّيْخ هذه الجزئية من خلال إجابته على سؤال مؤداه: لماذا لم يتكرر فعل الأمر ﴿**أَقْبِلْ**﴾ في لغة القرآن؟ وكان جوابه شافيا؛ لعدم تكرار المقام الذى اقتضى استعماله، فالحالة التي نُودِى فيها موسى عليه السلام لم تتكرر وإن تكررت حكايتها كما في آية سورة النمل، فمع تكرار الحكاية لم يذكر فعل آخر مكان ﴿**أَقْبِلْ**﴾ وسياق الكلام في النمل يقتضى ملاحظة ذلك الفعل معنى لا لفظا(٢) وعبارة الشَّيْخ الأخيرة – على قِصَرها – استطاعت أن تكشف عما أراد البيان كشفه من مراعاة الإقبال المعنوي الواقع من موسى عليه السلام حال تأنيسه وتأمينه مما حلّ به.

---

(١) السابق الصفحة ذاتها.

(٢) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٢٦.

وليس ما ذكره الشَّيْخ ببعيد عما ارتآه ابن الزبير الغرناطي حينما عرض لمشتبه النظم في الآيتين محاولا كشف وجه التناسب بينهما فقال: "فما أفْهَمتْ آيةُ النمل من هذا فهو المراد بآية القصص ...فسمع موسى عليه السلام من كلام ربه ما حصل به المعنى المقصود، ثم اختلف التعبير عندنا عن ذلك والمعنى واحد فلا اختلاف"(١) أما عن وجه اختصاص آية النمل بقوله: ﴿**إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**﴾ واختصاص آية القصص بقوله: ﴿**إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**﴾ فقد أرجعه ابن الزبير الغرناطي إلى مناسبة ما ورد في قصص كلتا السورتين، ففي النمل ورد فيها قصّةُ بلقيس وقومها، وعبادتهم للشمس من دون الله، ثم هداها الله بسليمان عليه السلام حتى قالت: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [النمل: ٤٤] فناسب هذا قوله تعالى في تأنيس موسى عليه السلام: ﴿**إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ**﴾ [النمل: ١١] أما في سورة القصص فهو مناسب لما ورد في آخرها وهو قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا**﴾ [القصص: ٨٣] وهى آية عامة في كل متصف بالإيمان متمسك بما في الآية(٢).

وأحسب أن ابن الزبير الغرناطي لم يكن قانعا بما ذكره من حصول التناسب بين قوله: ﴿**إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**﴾ في آية القصص وبين نهاية السورة الكريمة؛ ولهذا أردف كلامه السابق بجواب ثانٍ أرجع فيه حصول التناسب بين السورتين الكريمتين – سورة النمل وسورة القصص– بوقوع الإحالة في آية القصص على ما ذكره في سورة النمل فقال: " إن الآمنين لما تقدَّم – في

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، بتحقيق/ سعيد الفلاّح صـ ٨٩٩ بتصرف، دار الغرب الإسلامي ط الأولى ١٤٠٣هـ ٢٠٠٧م.

(٢) ينظر: ملاك التأويل صـ٨٩٩، ٩٠٠.

سورة النمل – بيانٌ أنهم المرسلون ومن ظُلِم من غيرهم ثم بدّل حسنا بعد سوء ... وقعت الإحالة في آية القصص اكتفاء بما تقدّم"[١].

وقد انتهج الإمام الكرماني في توجيه التناسب بين الآيتين نهجا آخر، بَناهُ على مناسبة كل آية لما ورد فيها، فقال: "اختصت سورة النمل بقوله: ﴿**لَا تَخَفْ**﴾؛ لأنه بُنِيَ على ذكر الخوف كلامٌ يليق به، وهو قوله: ﴿**إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**﴾ أمّا في القصص فإنه لما اقتصر على قوله: ﴿**لَا تَخَفْ**﴾ ولم يُبْن عليه كلامٌ زِيدَ قبله ﴿**أَقْبِلْ**﴾؛ ليكون في مقابلة ﴿**مُدْبِرًا**﴾ أي: أقبل آمنا غير مدبر ولا تخف"[٢] وأرى أن المقابلة وحدها ليست سببا مرجّحا لورود الفعل ﴿**أَقْبِلْ**﴾ في هذا السياق؛ ولهذا لم أجد لهذا التعليل من قبول في النفس ما وجدته في تعليل الشَّيْخ وحسن بيانه.

ومن روائع النظم الحكيم في وضع الصّيغة في موضعها الذى لا يصلح فيه سواها ما لفت إليه الشَّيْخ في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الفتح: ٢٤] فقد عبّر عن الغلبة التي أحرزها المسلمون في فتح مكة بالظَّفر دون غيره من ألفاظ قرآنية عبّر بها النظم الحكيم في كثير من مواضعه كالنصر وغيره، على الرغم من شيوع مادة (نَصرَ) في القرآن الكريم بصيغه الصرفية المتعددة شيوعا مستفيضا، فقد وردت فعلا ماضيا، ومضارعا، وأمرا، واسم فاعل، واسم مفعول، وصفة مشبّهة باسم الفاعل، ومصدرا، ومفعولا مطلقا[٣].

---

(١) ملاك التأويل صـ ٩٠٠ بتصرف.

(٢) أسرار التكرار في القرآن المسمى "البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان" لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، بتحقيق/ عبد القادر أحمد عطا صـ ١٩٢،١٩١ ط دار الفضيلة (بدون تاريخ).

(٣) يراجع ورود هذه المادة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه/محمد فؤاد عبد الباقي، مادة: نصر صـ٧٠٢،٧٠٤ ط دار الكتب المصرية ١٣٦٤.

عقد الشَّيْخ موازنة لطيفة بين صيغتي (النَّصْر) و (الظَّفَر) بعدما تتبَّع مواضع ورودهما في لغة القرآن فوجد أن مادة (النَّصْر) وردت بصورها الصرفية المختلفة أربعا وأربعين ومائة مرة في مقابل ورود مادة (الظَّفَر) مرة واحدة في صورة الفعل الماضي المعدّى بالهمزة، فهي فريدة من الفرائد التي ذكرها القرآن مرة واحدة ثم هجرها إلى الأبد، ويثير الشَّيْخ – هنا – سؤالا استنبطه من واقع لغة القرآن فيقول: لماذا تلك الكثرة في (النَّصْر) والندرة في (الظَّفَر) في لغة القرآن الحكيم ؟.

وقد أجاب الشَّيْخ على هذا السؤال بأنّ التعبير بالنَّصر في القرآن جاء وصفا عاما لكل غَلَبٍ حقّقه أنصارُ الحقّ على أعدائهم، ففي غزوة بدر قال سبحانه:﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٣] وفى غزوة حنين وغيرها من الغزوات قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾ [التوبة: ٢٥] وفى ظهور الإسلام على كافة شبه الجزيرة عقب فتح مكة قال سبحانه: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ [النصر: ١–٣] أما فتح مكة ففيه خاصيّة ميّزته عن باقي الفتوحات، وهى أنه النصر الوحيد الذى تمّ بلا إراقة دماء، ولا إشهار سلاح، ولا أدنى مقاومة واجه بها المسلمون أهلَ مكّة الذين كانوا عقبة كؤودًا في طريق الدعوة من أول يوم أعلنت فيه(١).

والشَّيْخ فيما ذكره من اختصاص موضع سورة الفتح بالظفر دون النصر منتفع بما ذكره المفسرون، يقول العلامة ابن عاشور: "أوثرت مادة الظّفَر دون أن يقال: من بعد أن نَصَركم عليهم؛ لأن الظّفَر هو الفوز بالمطلوب فلا يقتضي وجود قتال، فالظفر أعم من النصر"(٢) وقد تمّ هذا الفتح المبين دون

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٤٦،٤٧.
(٢) التحرير والتنوير للعلامة ابن عاشور ٢٦/ ١٨٦ ط الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

قتال، يؤيد ذلك ما رُوِيَ عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن ثمانِين رجلا من أَهل مكة هبطوا على رسول الله -ﷺ- من جَبل التَّنعِيم[1] مُتَسَلحِين، يُريدونَ غِرَّةَ النبي- ﷺ - وأَصحابهِ[2] فأَخَذهمْ سِلْمًا فَاسْتحْياهُمْ فَنَزلت الآية [3].

والشَّيْخ حين رمق من سماء بلاغة القرآن وجه التعبير بالظفر دون النصر في هذا الموضع مستأنسا بآراء أهل التفسير لم يغفل عن الخصوصيات الدلالية للمفردة القرآنية، ولهذا نراه ينقل عن اللغويين اختصاص مادة (ظفر) بنشب الأظفار، ونشب الأظافر أيسر وسيلة لحصول المطلوب، يقول الراغب: " الظُّفْرُ يُعبّرُ عن السّلاح به تشبيها بظُفُر الطائر إذ هو له بمنزلة السّلاح...والظَّفَرُ الفوز، وأَصْلُهُ من ظَفَرَهُ عليه، أي: نشب ظُفْرُهُ فيه، واستشهد بالآية.. "[4].

ولهذا كله آثر القرآن التعبير بالظفر في هذا الموضع دون سواه من مواضع ذكر النصر في القرآن الكريم وهى كثيرة كما أوضحنا، وليس ما فعله القرآن بدعا عمّا أَلِفَهُ العربُ في لغتهم فقد "كانوا يخصّون الظّفر بالفوز والغَلَب الذى يتم بسهوله ويسر، وأن القرآن جاراهم في تعبيراتهم فقد نزل بلغتهم وعلى طرائقهم في البيان صاغ بيانه...ولهذا توارت كلمة ﴿**نَصَرَكُمُ**﴾ في هذا المقام وبرزت كلمة ﴿**أَظْفَرَكُمْ**﴾ للوفاء بالمعنى حق الوفاء" [5].

وهكذا نجد الكلمة القرآنية مرتبطة بسياقها؛ لتؤدي وظيفتها في بنية الكلام بحيث لا يمكن الاستغناء عنها، فالتعبير بالإظفار مناسب جدا لسياق الآية،

---

(١) التنعيم: موضع بمكة في الحل، وهو بين مكة وسرف.

(٢) الغرة (بالكسر): الغفلة، أي يريدون أن يصادفوا منه ﷺ ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم.

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه باب قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ برقم ١٨٠٨، ١٤٤٢/٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، صـ٣١٤.

(٥) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ٤٨ بتصرف.

ولوجاء التعبير الإلهي بالنَّصر لتبدّل المعنى، وضاع الهدف المنشود، واختلّ التناسق الذى حرص النظم على تحقيقه، وأظنني بعد ذلك لا أرى في القول بأن استعمال صيغة ﴿**نَصَرَكُمُ**﴾ مكان ﴿**أَظْفَرَكُمْ**﴾ وجها من وجوه البلاغة، ولذا فإن الصيغة التي استعملها القرآن تتجاوب مع مقام الامتنان الذى اختص الله به المسلمين حين يسّر لهم سبيل الفتح المبين، وهذا ما جسّده القرآن تجسيدا حيّا باستعمال هذه الصيغة.

ومن الإعجاز في انتخاب المفردة القرآنية ما عرض له الشَّيْخ في بحثه الماتع حول منهج القرآن في استعمال لفظتي (قَلِيلٌ) و(كَثِيرٌ) فقال: " وردت هاتان الكلمتان في لغة القرآن ورودا مستفيضا، وتواردت عليهما جميع حالات الإعراب، من الرفّع والنّصب والجر، وهما ملازمان في لغة القرآن للإفراد والتنكير، ويُسْتثنى من صور الإفراد صورةٌ واحدةٌ، جاءت فيها (قليل) مجموعة جمع مذكر سالما، أمّا التنكير فقد عمّ كلَّ مواضعهما، فلم تأت فيه أيٌّ من الكلمتين معرفة قط، أما قوله تعالى:﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾ [التوبة: ٢٥] فلا يقدح فيما ذهبنا إليه؛ لأننا نتعرض هنا لـ (قليل) و(كثير) لا للقلة والكثرة"(١).

والمتأمل في هذا النص الذي أورده الشَّيْخ في صدر بحثه لمنهجية القرآن في استعمال هاتين الكلمتين اللتين تكررتا كثيرا في سياقات القرآن المتعددة يجد أنه قد بذل جهدا جهيدا في تتبُّع مواضع ورودهما، ومعرفة أحوالهما الإعرابية رفعا ونصبا وجرا، وطريقة القرآن في استعمالهما إفرادا وجمعا، وتنكيرا وتعريفا، فالشَّيْخ لا تكفيه النظرة العجلى، ولا يقنع بقليل المعارف إذا رام أن يحوم حول لغة الكتاب العزيز.

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٥٠.

وسنقف أمام عبارة الشَّيْخ – في نصّه السابق – " ويُسْتثنى من صور الإفراد صورةٌ واحدةٌ، جاءت فيها (قليل) مجموعة جمع مذكر سالما " وذلك لتعلقها بما نحن بصدده من استكشاف طريقة القرآن في اصطفاء الكلمة وتخيُّر اللفظ المناسب لما له فروق دقيقة في دلالته تلائم السياق الذى يرد فيه، وقد خصّ الشَّيْخ عبارته السابقة بمزيد من التفصيل والتوضيح بعدما أورد أمثلةً لاستعمال كلتا الفظتين في لغة القرآن فقال: " مجيء ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ هكذا مجموعة مرة واحدة من عشرات المرّات دليلٌ تلو دليلٍ على العناية الفائقة في انتقاء كلمات القرآن حتى في الهيئة اللفظية، ودليل لا يُدْفع على أن مجيء ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ في قوله تعالى:﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ**﴾ [الشعراء: ٥٤] – له خاصيّة دلالية فريدة ولمحة بيانية دقيقة لم يف بها سواه من الألفاظ المناظرة له، حيث لم يقل: قليل ولا أقلّة "[١] والفرائد التي اشتمل عليها الكتاب العزيز – كما ذكر ابن أبى الإصبع –لا يقع مثْلُها لمخلوق، وهى تدلُّ على عظم فصاحته، وقوة عارضته، وجزالة منطقه، وأصالة عربيته، بحيث تكون هذه اللفظة إذا سقطت من الكلام عزّت على الفصحاء غرابتها، وهي من الكثرة في القرآن بحيث يَعْسُر حصرُها [٢]

وبعد رحلةٍ طويلة من البحث والتقصّي أطالَ فيها الشَّيْخ النّظرَ وأجال التفكير فإنه يهتدى إلى دواعي استعمال هذا الوصف في هذا السياق فيقول: "وقد أطلنا النظر فيها، والتفكير حولها، وها نحن نسجل ما هُدينا إليه من دواعي استعماله بلاغيا في هذا المقام:

أولا: إنها وقعت وصفا مباشرا لما فيه معنى الجمع، وهو (شِرْذِمة) والشّرْذِمة هي: الجماعة المنقطعة، وهذا منطبق تماما على بنى إسرائيل حين كانوا

---

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٥٥.

(٢) ينظر: بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصري بتحقيق د/ حفني شرف صـ٢٨٧، ط نهضة مصر (بدون)

بمصر، جماعة غريبة معزولة عن البلاد، و ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ فيه مطابقة بين الوصف والموصوف، فـ (شرذمة) جمع في المعنى، و ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ جمع لفظا ومعنى.

ثانيا: إن المراد من ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ هنا القلة العددية، وليس معنى نسبيا إضافيا على سبيل التبادل، فأهل البلاد كانوا أضعاف بنى إسرائيل، فهم كثرة حقيقية، وبنو إسرائيل قلّة حقيقية، وهما – القلة والكثرة – هنا وصفان لازمان لمن وُصف بهما في ذلك الوقت.

ثالثا: يفيد الجمع ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ تهويل شأن تلك القلة بدليل ما حكاه الله عن فرعون من وصف تلك القلة ﴿**وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ**﴾[الشعراء: ٥٥-٥٦].

رابعا: إن في ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ هنا توافقا لرؤوس الآى (الفواصل) وتوافق رءوس الآى سمة من سمات الإيقاع الصوتي في لغة القرآن؛ من أجل هذه الأبلغيات الثلاث كانت (قليلون) هنا في موضعها الفريد في القرآن كله"[١].

ونقلنا نصّ الشَّيْخ – هنا – على طوله؛ لأهميته فهو يُجلّى منهجه في استنباط الطائف البلاغية المستوحاة من وضع المفردة القرآنية في مكانها المناسب دون زيادة أو نقصان؛ ولهذا فإنه يجدر بنا أن نقف مع هذه الأوجه المتعددة التي التقطتها عينُ الشَّيْخ، ووقع عليها حِسُّه الدقيق من خلال هذه الوقفات الأربع:

أمّا الوقفة الأولى: فقد أشار فيها الشَّيْخ إشارة خاطفة إلى السّر البلاغي الحاصل من مطابقة الموصوف، وذلك بوقوع ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ وصفا مباشرا في المعنى لمدلول (شَرْذمة) ففيه معنى الجمع، والشّرْذِمة هي: الطائفة القليلة من الناس بناء على ما ذكره المحققون من أهل اللغة[٢] ولكن الشَّيْخ أورد

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٥٥،٥٦.

(٢) أورد ابن منظور هذا المعنى في لسان العرب، مادة: شرذم صـ ٢٢٣٢ ط دار المعارف.

(الشِّـرْذِمة) بمعنـى: الجماعـة المنقطعـة اسـتنادا إلـى مـا ذكـره الراغـب فـي المفردات[1]، ليسقط هذا المعنى على بنى إسرائيل حين كانوا بمصر جماعة غريبة معزولة عن أهل البلاد .

وأمّا الوقفة الثانية: فقد شَفَّت عن المراد بالقلّة، وهى القلةّ العددية، ورأىُ الشَّيْخ موافق لرأى عامة المفسرين، يقول الإمام الألوسي: "وقد بالغ اللعين في قلّتهم، حيث ذكرهم أولا باسم دالّ على القلّة، وهو (شِرْذِمَة) ثم وصفهم بالقلّة، ثم جمعَ القليل للإشارة إلى قلّة كل حزب منهم، وأتى بجمع السّلامة واستقلّهم بالنسبة إلى جنوده"[2] وقد أجهد المفسرون أنفسهم في تحديد هذا العدد، فمنهم من قال: إن موسى عليه السلام خرج في ستمائة ألف وعشرين ألفا، ومنهم من قال ستمائة وسبعين ألفا، ومنهم من قال ستمائة ألف مقاتل لا شاب فيهم دون عشرين سنة، وهو الرأي المنسوب لابن عباس رضي الله عنهما وأرى أنه لا طائل من وراء هذه الاختلافات.

وجوّز جار الله الزمخشري وتابعه الرازي وابن عاشور أن يكون المراد بالقلّة: الذّلة والقماءة وليس قلّة العدد، والمعنى: أنهم لقلّتِهم لا يُبالي بهم ولا يَتَوقع غلبتهم وعُلّوهم، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج، سارعنا إلى حسم فساده، وقيل: الذلة مفهومة من قوله (شِرْذِمَة) بناء على أن المراد منها: بقية كل شيء خسيس، أو السفلة من الناس[3].

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن صـ٢٥٨.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٨١/١٩، ط دار إحياء التراث العربي.

(٣) ينظر: تفسير الكشاف ٣٩٣/٤، والتفسير الكبير للفخر الرازي ١٣٧/٢٣ دار الفكر العربي، ط الاولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م، وينظر أيضا: روح المعاني ٨٢،٨١/١٩.

وأمّا الوقفة الثالثة: فقد وقف فيها الشَّيْخ على أبلغية الوصف بجمع الكثرة ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: قليلة، ولكن فرعون اللعين – فيما حكاه القرآن عنه – قد عَدَلَ عن ذلك مبالغةً في تأكيد تلك الصفة، وجرى لهذا الأسلوب نظائرُ كثيرةٌ في القرآن الكريم، يقول أستاذنا الدكتور/محمّد الأمين الخضري: "وثمّة طريقة أثيرة في الذكر الحكيم يعدل فيها عن الواحد ويسلكه في الجماعة مبالغة في تأكيد الصفة لموصوفها ...وكم جرى بهذا الأسلوب لسان الطغاة في توعدهم أنبيائهم وتهديدهم لهم!! فهذا فرعون يهدد موسى عليه السلام بقوله:﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾ [الشعراء: ٢٩] تاركا التعبير بالفعل أو الاسم المفرد: لأسجُنَنّك، أو لأجعلنك مسجونا؛ ليستحضر في ذهن موسى عليه السلام هذه الطائفة من المسجونين التي تلاقى من التعذيب في سجون الطغاة ما لا يغيب عن بال المخاطب، بغية أن يملأ قلبه رعبا حين يتصوّر نفسه واحدا منهم، يعانى ما يعانونه"(١).

ولعلى لا أزاحم إشراقات سادتنا العلماء إذا قلت: إن اتصاف الموصوف بهذه الصفة فيه تصويرٌ لما أحاط الهالك فرعون من اضطراب وشدة، فقد هاله أمر هذه الجماعة المؤمنة من بنى إسرائيل، بدليل أنه احتاط لأمره معها فجمع جنوده من مدائن مصر المختلفة لمطاردتهم مخافة على نفسه وزوال ملكه؛ ولهذا عبّر عنهم باسم الإشارة:﴿**هَـؤُلَاءِ**﴾؛ ليومئ إلى تحقيرهم، ولعل هذا يتعاضد مع التصريح بأنهم شِرْذِمة قليلون، ومن ثمّ يكون قوله ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ تأكيدا لاحتقارهم.

وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ خبر ثان عن اسم الإشارة، فهو وصف في المعنى لمدلول ﴿**هَـؤُلَاءِ**﴾ وليس وصفا لشرذمة، ولكنه مؤكّدٌ لمعناها؛ ولهذا جيءَ به بصيغة جمع السّلامة الذي هو ليس من جموع الكثرة،

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ بتصرف صـ١١٤،١١٥.

و(قليل) إذا وصف به يجوز مطابقته لموصوفه كما هنا، ويجوز ملازمته الإفراد والتذكير [١]

وأما الوقفة الرابعة: فقد أرجع فيها الشَّيْخ مجيء ﴿**قَلِيلُونَ**﴾ جمع مذكّر سالما إلى توافق رءوس الآي، والقول بإعجاز الفواصل أمر عالجه القدماء وجعلوه أحد الوجوه المحققة لإعجاز القرآن، يقول الرُّمّاني: "وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريقٌ إلى إفهام المعاني التي يُحتاج إليها في أحسن صورةٍ يُدَلُّ بها عليها" [٢] وحديثا هناك دراسات أظهرت مثل هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن ونظامه الصوتي البديع وقد أحال الشَّيْخ إلى بعضها[٣].

والفاصلة هنا تنسجم مع أخواتها لتكون في النهاية إطارا كليا لا يمكن فصل جزء منه عن الآخر، ولهذا عوّل عليها الشَّيْخ في إيثار جمع الكثرة دون جمع القلة مستأنسا بالسياق القرآني قبل الآية – موضع الاستشهاد – وبعدها، فقبلها جاء قوله تعالى:﴿**قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ**﴾[الشعراء: ٥٠–٥٣] وبعدها جاء قوله تعالى:﴿**وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ**﴾ [الشعراء: ٥٥–٥٦] وهكذا تتوالى فواصل بقية الآيات في تناسق وتعانق كما تترامى موجات البحر الهادئ يسلم بعضها بعضا في رقة وانسجام.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٣٠/١٩.

(٢) النكت في إعجاز القرآن للرماني صـ٩٨ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، بتحقيق / محمد خلف الله، ود/ محمد زغلول سلاّم دار المعارف ط الرابعة.

(٣) أشار الشَّيْخ إلى ما كتبه العلامة الدكتور/ محمد عبد الله دراز عن التوقيع النغمي في دراسته الماتعة " النبأ العظيم نظرات جديدة في إعجاز القرآن" طبعته دار القلم بالكويت.

ثانيا: تتبّع اشتقاقات المادة الواحدة واستكشاف علاقتها بالمقصد

من مساعي الشَّيْخ الحميدة في دراسته أنه قام بتتبُّع اشتقاقات المواد القرآنية – التي درسها – في مطارحها من الذكر الحكيم من ناحية ترددها بين التنكير والتعريف، والإفراد والجمع، والاسمية والفعلية، والتخفيف والتضعيف، واللزوم والتعدي، وغيرها من صيغ عمد النظم الحكيم إلى وضعها في موضعها الذى لا يصلح فيه سواها، كما ربط المفردة القرآنية بسياقها الذى وردت فيه؛ وذلك لأن "للسّياق نورا يشع في دلالة اللفظ، يصير فيه لؤلؤة منظومة في عقد من اللآلئ، فإذا أبنتها عن موضعها انفرطت حبّات هذا العقد، وانطفأ وهج تلك اللؤلؤة "[1].

ومن شواهد ذلك ما جاء في تعرُّضه للفظتي (الرِّيح) و (الرِّياح) وتتبّع مواضع ورودهما تنكيرا وتعريفا، وإفرادا وجمعا[2] في النظم الحكيم؛ إذ فقول: "وردت الرِّيح مفردة ومجموعة في لغة القرآن العظيم، ومنكّرة ومعرَّفة، والإفراد والجمع، والتعريف والتنكير طرق من طرائق اللغة بوجه عام، ومن طرائق

---

(١) وراء مواضعها وأسرارها في نظم القرآن الكريم د/إبراهيم صلاح الهدهد صـ١٦٩ بحث مستل من حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة في عددها الثالث عشر ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

(٢) كل ما ورد في القرآن الكريم من جمع (الريح) جمع كثرة، ولم ترد جمع قلّة على: أرْواح إلا في كلام العرب، كما في قول النُعمانُ بنُ مُقرِّن: "شهدت القتال مع رسول الله ﷺ كان إذا لم يُقاتل في أول النهار انتظر حتى تَهُبُّ الأرواحُ، وتحضر الصلوات" {رواه البخاري برقم ٣٩٩٢ في كتاب الجهاد، باب الكتاب إلى الكفار ودعائهم إلى الإسلام} ومثله قول زهير بن أبى سلمى:-

قف بالدِّيار التي لم يعفُها القِدَمُ بَلَــى وغـــيّرها الأرواح والدِّيمُ

{ديوان زهير صـ٥٩ دار المعرفة بيروت ط الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥} ينظر: كتاب الريح لأبى عبد الله الحسين بن خالويه صـ٢١، قدّم له د/ حسين محمد شرف ط الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

البيان القرآني المعجز بوجه خاص، والكلمة القرآنية تخضع لاعتبارات دقيقة، وتؤدى معانى محكمة هي البلاغة في أعلى مستوياتها"[1].

ولقوله: "والكلمة القرآنية تخضع لاعتبارات دقيقة ...إلخ" إيحاء هامس ينبغي أن نصغى إليه باهتمام، وهو أن القرآن لا يؤثر الكلمة في مكانها إلا وهو يعتبر حسن مكانها من النظم، وفضل مؤانستها لأخواتها بحيث يكون لها ذاتية خاصة، أكسبها إياها النظم فوضعها في موضعها الذي لا يصلح فيه سواها، وتلك هي البلاغة في أعلى مستوياتها على حدّ تعبيره.

يستعرض الشَّيْخ مُثُلا لورود (الرِّيح) مفردة، وأخرى مجموعة[2]لافتا إلى سياقاتها ومقاماتها القرآنية التي وردت فيها؛ ليقف على المنهج القرآني في استعمالها، حيث تردّدت (الرِّيح) المفردة بين التعريف والتنكير موزعة على خمسة مقامات قرآنية؛ هى:

١- في مقام المدح، كما في قوله تعالى في آية يونس: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ**﴾ [يونس:٢٢].

٢- في مقام الذم المقترن بالشر، كما في قوله تعالى في آية الإسراء: ﴿**أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ**﴾ [الإسراء: ٦٩].

٣- في مقام ضرب الأمثال المنبئة عن الوعيد والتهديد، كما في آيتي الحج:﴿**وَمَن يُشرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخطَفُهُ ٱلطَّيرُ أَو تَهوِى بِهِ**

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٥٧.

(٢) الريح مأخوذة من الرَّوْح، وسميّت الريح ريحا؛ لأن الغالب عليها في هُبوبها المجيء بالرَّوح والرَّاحة وانقطاع هُبوبها يُكسب الكربَ والغمَّ والأذى، ويسبّبُ الاكتئاب والضِّيق، ينظر: الريح لابن خالويه صـ٢١، وينظر أيضا: تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (روح) بتحقيق /على هلال، مطبعة الكويت ط الثانية ٢٠٠٤م.

ٱلرِّيحُ فِى مَكَان سَحِيق﴾ [الحج: ٣١] وإبراهيم عليه السلام:**﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾** [إبراهيم: ١٨].

٤- في مقام التذكير بما فعل الله بالأمم التي أعرضت عن الإيمان، كما في آية الأحقاف: **﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [الأحقاف: ٢٤].

٥- في مقام الامتنان على الرسل وأتباعهم كما في آية الأنبياء **﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾** [الأنبياء: ٨١] وآية الأحزاب: **﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾** [الأحزاب: ٩].

أما لفظة (الريّاح) مجموعة فقد وردت في عشرة مواطن في القرآن الكريم؛ هي:

١- في آية البقرة: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة: ١٦٤]

٢- في آية الأعراف:**﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [الأعراف: ٥٧]

٣- في آية الحجر:**﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾** [الحجر: ٢٢].

٤- في آية الكهف:**﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾** [الكهف: ٤٥]

٥- في آية الفرقان:**﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾** [الفرقان: ٤٨]

٦- في آية النمل:﴿**أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النمل: ٦٣]

٧- في آية الروم:﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [الروم: ٤٦].

٨- وفي سورة الروم أيضا جاء قوله تعالى:﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ [الروم: ٤٨].

٩- في آية فاطر:﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ [فاطر: ٩].

١٠- في آية الجاثية:﴿**وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الجاثية: ٥].

وبعد عرض مواطن ورود (الرِّيح) مفردة ومجموعة في النظم الحكيم يهتدى الشَّيْخ إلى أن مجيء (الرِّيح) في حالة الإفراد استعملها القرآن في مجالي الخير والشّرّ، واستعمالها في الشّرّ أكثر منها في الخير سواء كانت معرَّفة أو منكّرة، أما إذا وردت مجموعة فقد التزم القرآن استعمالها في الخير دون الشَّر[١].

والشَّيْخ في هذه الالتفاتة المتذوقة منتفعٌ بما ذكره العلماء قبله كابن خالويه اللغوي والسيوطي وغيرهما من أنّ عامّة ما جاء في التنزيل على لفظة (الرِّياح) للسُّقيا والرحمة، وما جاء لغير هذا جاء على الإفراد؛ وذلك لأن رياح الرّحمة مختلفة الصفات والهبات والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أثير لها من

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٦١،٦٥.

مقابلها ما يكسر ثورتها؛ فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، وأما في العذاب فإنها تأتى من وجه واحد ولا معارض لها ولا مدافع[1].

وما كان لبحث الشَّيْخ السخيّ أن يقتصر على تتبع ورود (الرّيح) مفردة ومجموعة ليصل إلى هذه النتيجة المسبوقة، وإنما سعى إلى ما وراء ذلك من التماس المناسبة بين المقصد الإلهي والتعبير القرآني في استعمال الريح مفردة ومجموعة، فذكر أن (الرِّيح) أفردت؛ لأن تصرف القدرة الإلهية فيها كان منصبًّا على (الرّيح) مفردة لا مجموعة فمقامات ورودها تقتضي إفرادها:

– ففي إهلاك قبيلة عاد قوم هود عليه السلام أفردت الريح؛ لأن الله أهلكهم بريح واحدة.

– وفى تأييد الله لنبيه سليمان عليه السلام أفردت الريح وعُرّفت بالألف واللام تعريف الجنس، وجنس الريح واحد لا جمع.

– وفى مقام التذكير بنعمة الله مع قدرته على تبديلها نقمة أفردت الريح، وكان مقصودا بها الخير كما في آية الشورى:﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ**﴾[الشورى:٣٢-٣٣] فالريح هنا –كما ذكر الشَّيْخ – ريح خير لا ريح شرّ[2] وفى إسكانها تذكير بنعمة السير في البحر وتسخيره للناس خلافا لابن المنيّر الذى ذهب إلى أن (الرّيح) هنا مستعملة في الشرّ لا الخير؛ لأن في سكونها عذابا وشدّة على أصحاب السفن؛ ولهذا جرى استعماله على القاعدة[3] أما آية يونس ﴿**وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾ فالحديث فيها عن تسيير الفلك في البحر سيرا منتظما، ولا

(١) ينظر: الريح لابن خالويه صـ٢٨،ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، ضبطه/ أحمد شمس الدين ٤٨٠/٣، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، والبرهان في علوم القرآن للزركشي/ بتحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ١٠/٤ ط دار المعرفة بيروت ١٣٩١هـ.

(٢) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٦١.

(٣) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ٤٨١/٣.

يكون ذلك إلا إذا دفعتها ريح واحدة لا رياح، فإذا هبّت عليها رياحٌ من كل جهة في وقت واحد اضطرب سيرها، وكان ذلك سببا في هلاكها(١).

ولعل اهتمام الشَّيْخ بالأثر المعنوي لورود (الرّيح) مفردة في مقام التذكير بنعمة الله في آية يونس عليه السلام شغله عن الأثر الناتج من التقابل البديع بين هاتين الصورتين ﴿**وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾ و:﴿**جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ**﴾ فجري الفلك المنبئ بالتلطف والطمأنينة في الصورة الأولى يقابله في الصورة الثانية عنصر المفاجأة المستفاد من قوله ﴿**جَاءَتْهَا**﴾ إشعارا بتبدّل الأوضاع، وانقلاب التيسير، ووقوع الكارثة، كما أن وصف الريح بأنها طيّبة في الصورة الأولى جاء موافقا لبثّ الطمأنينة في نفوسهم، قابل ذلك وصفها بالعصوف والاشتداد في الصورة الثانية؛ ومن ثَمّ كان لذكر هذه القيود فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا النظم، والمعنى بها أكبر منه بدونها.

وقد أرجع صاحب المحرر الوجيز تقييد (الرّيح) بالطيّب؛ لخروجها عمّا عُرف من استعمال الريح مفردة في العذاب والمكروه(٢) وأرى أن في هذا الوجه من التكلف ما يجعله دون الأول؛ إذ لو كان المقصود ذلك فما سرّ تقييد (الرّيح) في الصورة الثانية بكونها عاصفا ؟ ولو تتبعنا كل مظاهر البلاغة في هذا النظم الحكيم لخرجنا عما نحن بصدده، وأحسب أن بحوثا كثيرة قد تصدّت لهذا الأمر ووقفت على كثير من جوانبه.

إذا كان التناسب والانسجام بين التعبير وبين الأغراض والمقاصد ملمحا مهما أراده الشَّيْخ وسعى إلى تحقيقه فإنه ينطلق من هذه القاعدة ليربط ورود (الرّيح) مفردة ومجموعة بسياقاتها وأغراضها المتنوعة؛ ولهذا نراه بعد ما طوّف بنا في حقول القرآن اليانعة متتبّعا ورود هذه الكلمة في سياقاتها ومقاصدها

---

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٦١.

(٢) ينظر: تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية بتحقيق/عبد السلام عبد الشافي محمد ١١٣/٣، ط دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

المتعددة في لغة القرآن يضع أيدينا على المنهج القرآني في استعمالها مفردة في نقاط محددة وفى إيجاز غير مخلٍ؛ فذكر:

أولا – أن القرآن زاوج في معانيها بين الخير والشر، وهي في الشر أكثر منها في الخير.

ثانيا – إذا استعملها في الخير لم يقرن بها أوصافا، بل يقف عند حدّ ذكرها إلا في موضعين: أحدهما في آية يونس ﴿**وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾ والثاني: في آية الأنبياء ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ**﴾ وسرّ التباين في الوصفين ﴿**طَيِّبَةٍ**﴾ و ﴿**عَاصِفَةً**﴾ إكمال النعمة في كل موضع بما يناسبها.

ثالثا – إذا استعملها القرآن في جانب الشرّ قرن بها أوصافا تنبئ عنه؛ مثل:﴿**صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾ و﴿**الْعَقِيمَ**﴾ و﴿**مُصْفَرًّا**﴾ و﴿**تَذْهَبَ**﴾ في قوله تعالى:﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦] (١).

وأما الاستعمال القرآني لـ (الرّياح) جمعا فقد أجمله الشَّيْخ أيضا في مواطن راعى فيها وجه الارتباط بالمقاصد والأهداف في سياقاتها المتعددة، فذكر أن القرآن التزم استعمالها في الخير دون الشرّ، وأنها وردت في مقام الحديث عن الظواهر الكونية للعظة والاعتبار والتأمل في عجائب خلق الله من إرسال الرياح وتصريفها، وإثارة السحاب، وإحياء الأرض بعد موتها، وتذرية الرياح الهشيم، وهذه الظواهر الكونية دائمة ومستمرة؛ لذلك وجب في سنّة الله أن تكون أسبابها جمعا كاثرا رياحا لا ريحا، وبهذا المنهج المبسط الذى لا غموض فيه ولا التواء بيّن لنا الشَّيْخ بكل وضوح لماذا أُفردت (الرّيح) في لغة القرآن فيما أُفردت فيه من آياتٍ حكيمات؟ ولماذا جُمعت فيما جُمعت فيه من آياتٍ معجزات؟(٢).

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٦١،٦٢.

(٢) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ٦٤،٦٥.

ومُضيّا مع الغرض ذاته في تتبُّع اشتقاقات المادة القرآنية الواحدة؛ لاستكشاف علاقتها بالغرض الذي سيقت من أجله جاءت موازنة الشَّيْخ بين كلمتي (ميْت) بالتخفيف و (ميِّت) بالتشديد مع اتحاد أصولهما الثلاثية، وهي الميم والواو والتاء، تتبّع الشَّيْخ مواضع ورودهما في لغة القرآن، فعرض تسعة أمثلة لصيغة (ميّت) بالتشديد، ذُكر فيها اسم الفاعل: ميّت، وميّتُون، وميّتِين أربع عشرة مرة، وهى:

- قوله تعالى: ﴿**وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ [آل عمران: ٢٧].
- وقوله تعالى: ﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**﴾ [الأنعام: ٩٥].
- وقوله تعالى:﴿**حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ**﴾ [الأعراف: ٥٧].
- وقوله تعالى:﴿**وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ [يونس: ٣١].
- وقوله تعالى:﴿ **وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ**﴾ [إبراهيم: ١٧].
- وقوله تعالى:﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ [الروم: ١٩].
- وقوله تعالى:﴿**فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ [فاطر: ٩].
- وقوله تعالى:﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ [الزمر: ٣٠].
- وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى**﴾ [الصافات: ٥٨-٥٩].

أما صيغة (ميْت) الساكنة الوسط فقد عرض لها الشّيْخ في أحد عشر موضعا تضمنتها إحدى عشرة آية، وهى: قوله تعالى:﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا**

فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

- وقوله تعالى:﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا**﴾[الفرقان٤٨-٤٩]

- وقوله تعالى:﴿**وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِمَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا**﴾[الزخرف١١]

- وقوله تعالى:﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ [الحجرات: ١٢].

- وقوله تعالى:﴿**وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**﴾ [ق: ١١].

- وقوله تعالى:﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ** ﴾ [البقرة: ١٧٣].

- وقوله تعالى:﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ**﴾ [المائدة: ٣].

- وقوله تعالى:﴿**وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٩].

- وقوله تعالى﴿ **إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ**﴾ [الأنعام: ١٤٥].

- وقوله تعالى:﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ**﴾ [النحل: ١١٥].

- وقوله تعالى:﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا**﴾ [يس: ٣٣].

ومن خلال هذه الشواهد التي بسطها الشّيْخ لكلّ من هاتين الصيغتين نجد أنه قد أجاد إجادة مبدعة في رصد خصائص كلٍّ منهما؛ فقال: " إن القرآن يطلق على الحىّ الذي مصيره الموت كلمة (ميّت) بتحريك الياء وتشديده،

ويطلق على من كان حيّا ثم مات كلمة (الميْت) بسكون الياء، وهذا مطّرد في لغة القرآن لا يقبل جدلا"[1]

والمتأمل في هذا النص الذي ذكره الشّيْخ تلوح له دلالتان:

الأولى: اختصاص كلمة (ميّت) بتشديد الياء بالحيّ الذى قُضِى عليه بالموت، بدليل مخاطبة الله لرسوله -ﷺ- حال حياته بقوله: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ [الزمر: ٣٠]؛فوصف النبيّ-ﷺ- بأنه ميّت - وكذلك صحابته الكرام - دليلٌ قاطعٌ بأن كل حيّ مآله إلى الموت.

والثانية: اختصاص كلمة (ميْت) بسكون وسطها بمن مات حقيقة ففارقت روحه بدنه، وفى ضوء هذا المقياس نستطيع أن نتبيّن ارتباط صيغة (ميّت) بتشديد الوسط بالأحياء الذين سيموتون، وارتباط صيغة (ميْت) بسكون الوسط بمن تأكّد موته حقيقة كما هو واضح من استقراء شواهد القرآن لكلتا الصيغتين.

وهنا ملمح دقيق أشار إليه الشّيْخ في تعقيب منفرد، يعدُّ - في رأيي - عجيبة خارقة من العجائب التي منحه الله إيّاها، وهي إرجاع مزيّة هذا الاختصاص إلى هيئة اللفظ نفسه؛ فقال: "قد تكون هيئة اللفظ - والله أعلم- لها مدخلٌ في هذا الاختصاص في الموضعيْن: فالمشدّد الوسط (ميّت) فيه حركة صاخبة وشدة ملحوظة عند النطق به، وهذا يناسب الحياة بما فيها من قوة ونشاط، أما (ميْت) الساكن الوسط ففيه رخاوة وضعف يلحظان عند النطق به، وهذا يناسب الموت بما فيه من انقطاع الحركة والنشاط"[2].

وإذا كان الشّيْخ قد تتبّع اشتقاقات صيغ التعبير بالموت في نظم القرآن؛ فذكر منها: ميّت، وميّتون، وميّتين، وموْت، وميْت، وميْتة، فإنه يدلف إلى بيان علاقة بعض هذه الاستعمالات القرآنية بالغرض الذي سيقت من أجله؛ ليرينا كيف طابق القرآن بين المقصد والصيغة التي تناسبه حتى تقع موقعها

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١١٧.

(٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١١٦،١١٧.

في أداء المعنى وتصويره، وذلك من خلال تفنيد بعض الشبهات التي تدعو إلى تشويه هذا المنهج القرآني، بإثارة بعض الاعتراضات الواهية والأباطيل الكاذبة.

ولعل أول ما يلقانا في صيغة (ميّت) بتشديد الوسط وبتأمل الآيات التي وردت فيها نجد أن الموصوف بها في جميع المشاهد التي تكفّل القرآن بعرضها لم يخرج عن أحد نوعين: إما أن يكون له روح نشأت عنها الحياة، وهم الموصوفون في قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ وإما ألا يكون له روح وهو الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ [فاطر: ٩] وهذه إشارة أخرى تُضم إلى ما ذكره الشّيْخ من اختصاص إطلاقها على الحيّ الذى سيموت، وهنا يقع التساؤل الذى أثاره الشّيْخ: كيف وصف القرآن (البلد) بالميّت مرتين – في آيتي الأعراف وفاطر السابقتين – وهى غير قابلة للموت، كما أنه أجرى على لسان أهل الجنة قولهم: ﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ وأهل الجنة أحياء أبدا لا يموت منهم أحد؟[1].

فتح الله علي شيخنا بما نحاول تلخيصه فلا نستطيع فنضطرّ إلى نقل الكلام برُمّته، وهو: أن ما حُكِى عن بعض أهل الجنة فهو حكاية حال ماضية، وسياق الكلام يقضى بهذا: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أَفَمَا نَحْنُ**

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١١١،١١٢.

بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٠-٥٩] فقول أهل الجنة تذكير لقرين السوء بما قال في الحياة الدنيا تعريضا وتبكيتا(١).

وأما الإجابة عن الشق الثاني: وهو المتعلق بوصف (البلد) بـ ﴿**مَيِّتٍ**﴾ فقد هُدى الشّيْخ في الإجابة عنه إلى وجهين: إذ كان الأصل أن يوصف (البلد) بـ (ميْت) تشبيها له بمن مات من الأحياء، ولكنه وصف بـ ﴿**مَيِّتٍ**﴾ تشبيها له بالحيّ الذى سيموت:

الوجه الأول: أن الآيتين اللتين وصف فيهما (البلد) بـ ﴿**مَيِّتٍ**﴾ اتفقتا في أمرين: أولهما: أن السحاب مسوق ﴿**سُقْنَاهُ**﴾ في الأعراف، و ﴿**فَسُقْنَاهُ**﴾ في فاطر. وثانيهما: أن السَّوْق فيهما معدى بحرف جر ﴿**لِبَلَدٍ**﴾ في الأعراف، و﴿**إِلَى بَلَدٍ**﴾ في فاطر، وهذا معناه أن مسافة ممتدة بين منشأ السحاب وبين البلد الذى سيق إليه، فلا يبعد أن يكون في هذا (البلد) آثار من حياة ريثما يصل إليها السحاب فيجدد أسباب الحياة فيها، فعومل البلد معاملة (الحيّ) الذى سيموت؛ ذلك أن الفعل ﴿**سُقْنَاهُ**﴾ وحرف الجر المعدّى به ﴿**إلى**﴾ و (اللام) لابد أن تكون لهما دلالة في بناء الجملة، وهذه الدلالة هي التي نصصنا عليها قبلا، والوجه الثاني: أن يكون المراد من (البلد) أهله، وهم قطعا أحياء سيموتون، ونظير هذا في القرآن من إطلاق المكان وإرادة أهله قوله تعالى:﴿**وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ**﴾ [الأعراف: ٤] وغير ذلك في القرآن كثير، وبهذا تطّرِد القاعدة التي يكشف عنها منهج القرآن في كلمة ﴿**مَيِّتٍ**﴾(٢).

هذا ما قاله الشّيْخ، ونحب أن نضيف إليه سر اختصاص تجرد الفعل ﴿**سُقْنَاهُ**﴾ من الفاء وتعديته بـ (اللام) في آية الأعراف ﴿**سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ**﴾ واقترانه بالفاء وتعديته بـ (إلى) في آية فاطر ﴿**فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ**﴾ أرجع

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١١٢،١١٣.
(٢) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١١٣،١١٤.

ابن الزبير الغرناطي سرَّ هذه المغايرة إلى اختلاف الموضعين، وهو أن قوله تعالى في الأعراف: ﴿**حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا**﴾ كلام يحتاج إلى جواب، فهو في قوة قول القائل: فلما استقلّت السحاب بما فيها من الماء، فكان الجواب غير محتاج إلى الفاء، كما جاء في قوله تعالى:﴿ **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ** ﴾ [يونس: ٢٢] أما في آية فاطر فالكلام معطوف بعضه على بعض بالفاء المقتضية الترتيب والتعقيب ليطابق اللفظ ما تحته من المعنى، ولما استدعى لفظ ﴿**سُقْنَاهُ**﴾ المكان المسوق إليه عُدّى في الأعراف بلام الجر فقيل ﴿**لِبَلَدٍ**﴾ ليناسب المجرور فعله الذى استدعاه في الوجازة، ولما طال الفعل في الآية الأخرى بما لزمه من حرف التعقيب ناسبه تعديته بـ ﴿**إِلَى**﴾ إسهابا مقابل إسهاب، وإيجازا مقابل إيجاز(١).

ثالثا: استكشاف علائق الأنساب بين معاني المفردة الواحدة

قد تتعدّد دلالات المفردة القرآنية من موضع إلى آخر تبعا لتنوع السياقات واختلاف المقامات إلا أن ثمّة معنى رئيسا يجمعها، تتظاهر عليه جميع استعمالاتها في مواضعها المختلفة وتراكيبها المتنوعة؛ ولهذا فإن الشَّيْخ كثيرا ما يسعى إلى ربط معاني المفردة القرآنية بعضها ببعض في سياقاتها المتعددة، واستكشاف علائق الأنساب بين معانيها استنادا إلى وضعها اللغوي.

من ذلك ما جاء تناوله للفعل (مَدَّ) والموازنة بينه وبين (أمَدّ) في لغة القرآن فيقول: "إن (مَدّ) إذا استعمل في القرآن في سياق الحديث عن الإنسان اخْتُصَّ بالمكروه، وفى سياق غيره اختُصّ بالمحبوب، وأن (أمَدَّ) إذا جاءت في سياق الحديث عن الإنسان اخْتُصّت بالمحبوب، ولم يرد منها شيء في مقام

(١) ينظر: ملاك التأويل صـ ٥٠٦، ٥٠٧.

المكروه"[1] وهنا يثير سؤالا، لماذا هذه التفرقة القرآنية بين الفعلين مُجْرَيين على الإنسان؟!.

وهذا الكلام في غاية الدقة والإصابة انطلاقا من منهج القرآن نفسه في استعمال كلا الفعلين، والمتتبع لمواضع ورودهما في الذكر الحكيم يجد أن أكثر ما جاء (الإمْدَاد) في المحبوب كما في قوله تعالى:﴿**وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ**﴾ [الطور: ٢٢] والمدّ في المكروه كما في قوله تعالى:﴿**كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**﴾ [مريم: ٧٩] وقد ذكره الراغب في المفردات والزركشي في البرهان[2].

ولنمض الآن في متابعة كلام الشَّيْخ حول سِرّ اختصاص (مَدَّ) بالمكروه، و(أمَدّ) بالمحبوب فسنجده يستأنف بحثه لهذا الموضوع بما ذكره تحت عنوان: لماذا هذا الاختصاص؟ والجواب جاء معتمدا على ما ذكره اللغويون في دلالة كلتا اللفظتين فقال: "أشار بعض علماء اللغة إلى أن المدّ معناه: الجرّ، أي السّحب، أما الإمداد فمعناه: الزيادة في الخير والتقوية من أمددت الجيش، إذا عزّزْته بقوة أخرى من الجند والسلاح، وعلى هذا فإن القرآن في استعماله لـ (مَدّ) و(أمَدّ) راعى هذين المعنيين، فكان (المدُّ) فيه مهانة، و(الإمداد) كرامة"[3].

يستخدم الشَّيْخ – هنا – ثقافته اللغوية مستندا إلى ما ذكره اللغويون والمفسرون في تحديد أصل الاستعمال اللغوي لكلا الفعلين، ويجعل ذلك مدارا لتوارد جميع استعمالاتهما القرآنية، يقول الراغب: " أصل المَدّ: الجرّ، ومنه:

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ١٢٧، بتصرف.
(٢) ينظر :المفردات في غريب القرآن صـ٤٦٥، والبرهان في علوم القرآن ٨٢/٤.
(٣) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ١٢٧.

المُدّة للوقت الممتدّ، ومِدَّةُ الجرحِ، ومَدَّ النّهرُ، ومَدَّهُ نهرٌ آخر... وأَمْدَدْتُ الجيشَ بِمَدَدٍ، والإنسانَ بطعامٍ[1].

والشَّيْخ وإن تابع الراغب في تأصيله وجاراه فيما ذكره إلا أنني أرى أن محاولة التوفيق بين جميع الاستعمالات القرآنية لـ (المدّ) و(الإمداد) وحصرها في أصل الوضع اللغوي للمفردة القرآنية لا يتوافق مع التناسب الداخلي لاستعمال كل لفظة في موضعها، فمهما تعددت استعمالات الكلمة الواحدة في النظم الحكيم فإن لها في كل موضع معنى ينتظمها، ودلالة ذاتية، وسمات جمالية خاصة بها، أكسبها إياها النظم، ولهذا لم يعتدّ الإمام عبد القاهر بجمال اللفظة ودلالاتها إلا داخل النسيج النظمي[2].

وليس معنى هذا ألا توجد أواصر دلالية تربط بين معاني المفردة القرآنية في سياقاتها المختلفة، كلا!! بل هناك جذور دلالية وعلائق تنتظم كل معانيها، هذه العلائق تشبه علائق جذور الشجرة الواحدة، ثم يكون لها في كل موضع سرٌّ يقتضيها وموقعٌ تفتح به أفقا رحبا في المعنى.

ومن مواقع استعمال الفعل (مَدّ) المستعمل في الشرّ أو المكروه، وقد ورد في سياق الحديث عن الإنسان ما جاء في سورة طه[3]:﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ**﴾ [طه: ١٣١] فالمكروه هنا – بله المحرّم – هو مدّ الأعين إلى ما متّع الله به بعض عباده؛ لأن مِنْ خُلُق المؤمن أن يرضى بما

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن صـ٤٦٤، ٤٦٥بتصرف، وينظر أيضا: تفسير الألوسي ٣٥/١٤، وحاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، ضبطها الشَّيْخ/عبد الرازق المهدى ١٠٤/٨، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، بتعليق الشَّيْخ محمود محمد شاكر صـ ٤٤، دار المدني بجدة ط الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢.

(٣) ومثلها ما ورد في الآية رقم ٨٨ من سورة الحجر بعدم وجود الواو العاطفة في صدر الآية.

قسم الله له بعد الأخذ بالأسباب، ومثله المدّ في العذاب، والمدّ في الضلال، والمدّ في الغى، والمدّ في الطغيان، والمدّ في الظنون المعادية للإيمان، أما استعماله في سياق الحديث عن غير الإنسان فإن القرآن يستعمله في مقام الخير مع العظة والاعتبار، وجاء على هذا النسق في خمس آيات، والخير المحبوب فيه هو: مدّ الأرض وبسطها للمخلوقات، ومدّ الظل وتحريكه وتعاقب الضياء بعده في نظام بديع، ومدّ البحر بسبعة أبحر للفت النظر إلى سعة علم الله، ومدّ الأرض يوم القيامة فيحظى الصالحون برضوان الله، ويبوء الطالحون بالخسران(١).

ومن بديع التناسب بين دلالات المفردة القرآنية ما جاء في تناول الشَّيْخ لمادة (خَتَم) – ومثلها: (طَبَع) و(رَبَط) – وتتبُّع دورانها بين الاسمية والفعلية في لغة القرآن؛ لاستكشاف أواصر الترابط وعلائق الأنساب بين معانيها المختلفة في سياقاتها المتعددة، يجول الشَّيْخ بعقله في سياقات هذه المادة فيخلص إلى " أنّ القرآن يفرّق بين ما جاء منها فعلا، وما جاء منها اسما، فالصور الفعلية: (خَتَمَ – يَخْتِمُ – نَخْتِمُ) استعملها القرآن الحكيم في مواضع الذّم والعقاب المؤلم، إلا موضعا واحدا اختلف في معناه، والأصوب أنه جارٍ على نسق القرآن من استعمال هذه المادة إذا كانت فعلا في مواضع الذّم والعقاب، أمّا إذا كانت اسما (خَاتَم – خِتَام – مخْتُوم) فإن القرآن قصرها بلا خلاف على مواضع المدح والجزاء الحسن"(٢).

وفى ضوء ما عرضه الشَّيْخ فإن اللفتة البارعة التي قدّمها هي إظهار وجوه التمايز بين استخدام تلك المادة فعلا وبين استخدامها اسما، فإن كانت فعلا فهي للذمّ، وإن كانت اسما فهي للمدح، وبتتبُع وجوه الاستعمال وسياقاته

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ١٢٤،١٢٥.
(٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ١٧٤.

المتعددة يظهر لنا هذا الفرق واضحا جليا، وسنعرض له بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ولكن الذي يعنينا الآن هو التعرض لبيان أصل الدلالة اللغوية لهذه المادة، وكيف انبثقت منها تلك المعاني؟ عطفا على ما ذكرناه من إبراز وجوه التناسب بين استعمالاتها في لغة القرآن وإفادتها مع كل استعمال معنى جديدا، وبين احتفاظها بأصل الدلالة اللغوية، يقول ابن فارس في تأصيل هذه المادة: الخاء والتاء والميم أصل واحد، وهو بُلوغ آخرِ الشيء، يقال: خَتَمْتُ العملَ، وخَتَمَ القارئُ السُّورة، فأما الختْمُ وهو الطّبْع على الشّيء فذلك من الباب أيضا؛ لأن الطّبْع على الشّيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره، والخاتَم مشتقٌّ منه؛ لأنّ به يُخْتم، والنبيُّ ﷺ خَاتَم الأنبياء؛ لأنه آخِرُهم، وخِتام كلّ مشروبٍ آخِرُه، قال تعالى:﴿**خِتَامُهُ مِسْكٌ**﴾ [المطففين: ٢٦] أي: إن آخِر ما يجدونه منه عند شُرْبهم إياه رائحة المسك[١] فالمادة -كما ذكر ابن فارس - تدور حول أصل واحد وهو الانتهاء وبلوغ آخر الشيء، وهذا ملحظ دقيق ينبغي أن ننتبه إليه؛ لنرى شيوع هذا المعنى في كافة استعمالاتها وسياقاتها في القرآن الكريم.

وقد جوّز بعض الباحثين المعاصرين - إضافة لما ذكره ابن فارس - أن يكون معنى الختم: الإغلاق على الشيء بعد الفراغ منه، صونا له أو لمجرد منع نفاذ ما ليس منه إليه، كما في حديث الغار المشهور "اتّق الله ولا تَفُضَّ الخاتمَ إلا بحقّه"[٢] فالخاتم كناية عن عذريتها، وقد يقترن الإغلاق والتغطية

(١) ينظر: مقاييس اللغة مادة: (ختم)٢/٢٤٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب حديث الغار ١٧٢/٤،برقم: ٣٤٦٥، وفي رواية مسلم "ولا تفتح الخاتم" فمقابلة الفتح بالختم تؤيد دعوى ورود الختم بمعنى الانتهاء والإغلاق على الشيء لعدم دخول ما ليس منه

بوضع علامة – زيادة في الاستيثاق – فيسمى الختم عندئذ طبعا[١] ومن ثمّ يكون بين الختم والطبع عموم وخصوص مع ما بينهما من تقارب شديد، يقول أبو هلال: الفرق بين الختم والطبع: أن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه، فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم[٢] وجعلهما الرّاغب الأصفهاني بمعنى واحد[٣] بينما لفتت الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن في التفرقة بينهما إلى ملحظ آخر، وهو أن الختم دلالته أعم من الطبع؛ وذلك لأن البيان القرآني استعمل الطبع على القلب والقلوب في إحدى عشرة آية، سياقها جميعا فيما يطبع الله على قلوب الكفار والمنافقين والمعتدين وكل متكبر جبّار، ولا يبعد عنه سياق آيات الختم على القلب والقلوب، ولكن الكلمة جاءت على أصل معناها القريب في ﴿**رَحِيقٍ مَخْتُومٍ**﴾[المطففين: ٢٥] وفي ﴿**خَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠] فكأن الختم يأتي بدلالة أعم من الطبع الذى لا يأتي في البيان القرآني إلا منقولا من الاستعمال المجازي[٤] ولا نستطيع أن نحكم بعمومية العلاقة بينهما أو خصوصيتها على الإطلاق–كما ذهبت الدكتورة بنت الشاطئ – إلا بتتبُّع مواضع الورود ووجوه الاستعمال في سياقاتها المتعددة، وعلى أية حال فإن بعض الباحثين قد أجمل وجوه التمايز بينهما من عدة أوجه:

أولها: أن (الختم) في الاستعمال القرآني أفسح مجالا من الطبع، حيث وقع (الختم) على القلب والسمع والأفواه، كما ورد نعتا للرسول– ﷺ– وللرحيق الذى

(١) ينظر: مفهوم الطبع والختم وعلاقتهما بالقلب في القرآن الكريم د /نجيب بنعبد الله المدغري صـ١٩٥مقال اجتزأه صاحبه من أطروحته للدكتوراه"مفهوم القلب في القرآن الكريم بإشراف الدكتور/ الشاهد البوشيخي

(٢) ينظر: الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري بتحقيق/ محمد إبراهيم سليم صـ٧٤ دار العلم والثقافة.

(٣) ينظر: المفردات للراغب صـ١٤٢،١٤٣.

(٤) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق صـ٤٩٧.

يسقى منه الأبرار في الجنة، أما (الطبع) فلم يرد وقوعه إلا على القلب والسمع والأبصار.

وثانيها: وقع (الختم) في الاستعمال القرآني على قلب الكافر الذي لم يدخل الإيمان فيه ابتداء خلافا لمفهوم (الطبع) الذي وقع على قلب الكافر، وقلب المنافق الذي وصل إليه نور الحق ثم أنكره.

وثالثها: استعمل (الختم) على القلب في القرآن للدلالة إغلاقه والحول بينه وبين القيام بوظيفته، وهى العقل والفهم بوجه عام، أو عقل الآيات وتبيين أدلة الإيمان بوجه خاص، أو تلقى الوحي بالنسبة للنبي – ﷺ– بوجه أخص، أما (الطبع) فمتعلقه في استعمال القرآن الوظيفة الثانية فقط، وهى عقل آيات الله وتبيين دلائل الإيمان به سبحانه على وجه الخصوص، وبهذا يتبين جليا أن تفسير الختم بالطبع من شأنه أن يفوّت فقه المفهوميْن وتمييز أحدهما عن الآخر(١).

ونعود لما كنّا بصدده من استكشاف أواصر الأنساب بين معانى مادة (خَتَمَ) التي عقد الشَّيْخ موازنة بينها وبين استعمال القرآن لاسم المفعول منها (مَخْتُوم) وعند التأمل فيما ورد منها وتتبُع سياقاتها نجد أنها من المفاهيم محدودة الورود في نظم القرآن، حيث لم تستخدم إلا في ثمانية مواضع فقط، ورد منها الفعل ماضيا ومضارعا خمس مرات مقترنا بالقلب عدا قوله تعالى:﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [يس: ٦٥] فالختم هنا لم يقترن بالقلب، ولكنه وقع على الأفواه مما جعلها عاجزة عن الكلام، وقد قوبل بكلام الأيدي وشهادة الأرجل في سياق الحديث عن عذاب الكافرين يوم القيامة، أما بقية المواضع الخمسة فقد جاء فيها الختم مقترنا بالقلب وواقعا عليه، وهى:

(١) ينظر: مفهوم الطبع والختم وعلاقتهما بالقلب في القرآن الكريم صـ٢٠٢،٢٠٣.

١- في سياق الحديث عن الكافرين وعدم انتفاعهم بالإنذار جاء قوله تعالى: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [البقرة: ٧] فقوله ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ**﴾ "استئناف بياني بعد أن وصف الكفار في الآية السابقة مباشرة على هذه الآية، وقد جاء فيها ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة: ٦] فلما أخبرهم بأنهم ﴿**لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ في جميع الأحوال بيّن سبب استمرارهم على الكفر؛ بأنه ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ**﴾ عقابا لهم على عدم انتفاعهم بالإنذار، وإعراضهم عن الإذعان مع ظهور دلائل الحق عليه"(١).

٢- في سياق التدليل على وحدانية الله والتذكير بنعمه جاء قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٦] فالكلام هنا جار مجرى التهديد والتخويف اختير فيه التهديد بانتزاع سمعهم وأبصارهم وسلب الإدراك من قلوبهم؛ لأنهم لم يشكروا نعم الله عليهم، فالختم هنا مستعمل للدلالة على تعطيل وظيفة القلب بدليل عطفه على أخذه سبحانه سمعهم وأبصارهم مما لا يبقى معه سمع ولا بصر ولا قدرة على العقل أصلا(٢).

٣-في سياق التعجيب من حال الضال المتخبط في ظلمات الجهل فلم ينتفع بالمواعظ والبراهين جاء قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية: ٢٣] فالختم - هنا - وقع على السمع والقلب، ومعناه "عدم التأثر بالمواعظ، ولا التفكر في الآيات والنذر"(٣) ومن

---

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ١٧٥.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٣٤٧/٢، والتحرير والتنوير ٢٣٥/٧، والبحر المحيط ١٣٥/٤.

(٣) تفسير أبى السعود ١١٦/٥.

كان هذا حاله فلا سبيل لمخلوق إلى هدايته، وقد علّل الإمام البقاعي وقوعه عليهما فقال: " لما كان الضّال أحوج إلى سماع صوت الهادِي منه إلى غيره، وكان مَنْ لا ينتفعُ بما هو له في حكم العادم له قال: ﴿**وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ**﴾ فلا فهم له في الآيات المسموعة، ولما كان الأصمُّ قد يَفْهم بالإشارة قال: ﴿**وَقَلْبِهِ**﴾ فهو لا يعي ما من حقه وعيه، ولما المجنونُ الأصمُّ قد يُبْصرُ مضَارَّهُ فيُبَاشرُها مباشرة البهائم قال: ﴿**وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً**﴾ فصار لا يُبْصرُ الآيات المرئيّة، وترتيبها هكذا؛ لأنها في سياق الإضلال"(١).

٤- في سياق النهى عن عبادة الشيطان والأمر بعبادته سبحانه جاء قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [يس: ٦٥] والختم على الأفواه بمعنى جعلها عاجزة عن الكلام، وقد قوبل بكلام الأيدي وشهادة الأرجل.

وللدكتور/ السيد سلاّم – في وقوع الختم على الأفواه ومناسبته لمقام الوعيد – كلامٌ لطيف ينبئ عن توفيق بالغ، حيث قال: " فالختم على الأفواه هنا بمعنى منعها من الكلام، وإثباته للأيدي، وإثبات الشهادة للأرجل، ثم الطمس على الأعين معلقا على المشيئة أبلغ في الوعيد والتهديد، وهذا الشاهد جمع بين تعطيل نعم كانت لها الحرية المطلقة، وبعث القدرة في نعم لم تكن لها من قبل، فالأفواه تُكْتم، والأيدي تَتَكلَّم، والأرجل تَشْهَد، وهذا العقاب بالختم جاء – هنا – على الأفواه تناسبا مع ما بنيت عليه السورة، بداية من الإنذار في قوله: ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ**﴾ وقوله:﴿**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾ وكذلك تناسبا مع جدال الأفواه للمرسلين وتكذيبهم:﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا**﴾ فنظير هذا الجدال والتكذيب والتطيُّر والتهديد للرسل – وكل

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي ٩٨/١٨، ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

ذلك صادر من الأفواه – كان الجزاء من جنس العمل فجاء الختم عليها اليوم فلا تتكلم، وكان يمكنها أن تتكلم بالحق ،ولكنها أعرضت وجاءت بالباطل، فعاقبها اليوم أن يختم عليها وتنقل وظيفتها لغيرها إحكاما للشهادة، وضبطا للكلمة، وإثباتا لغضب الله عليها بعد أن أضمرت الحق فلم تنطق به وهى تعرفه، فاليوم لا تتكلم لا بحق ولا بغيره"(١).

٥- في سياق تبشير المؤمنين وإنذار الظالمين جاء قوله تعالى:﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [الشورى: ٢٤] جاء الخطاب – هنا – موجّها للنبي –ﷺ– لتبرئته مما يرميه به منكرو الرسالة صيانة له وتنزيها لمقامه الشريف، وقد اختلف المفسرون في تحديد المراد من(الختْم) المنسوب إلي قلبه –ﷺ– حيث جزم الإمام النسفي – فيما ذكره عن مجاهد – وتابعه الزمخشري بأن المراد: حِفْظ قلبه –ﷺ– والربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليه أذاهم، يقول الزمخشري: " وهذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء عن مثله، وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم، ومثال هذا: أن يخون بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلني، لعل الله أعمى قلبي، وهولا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله"(٢) أما ابن عطية الأندلسي (صاحب المحرر الوجيز) فقد ارتأى – فيما نقله عن قتادة وفرقة من المفسرين – تفسير الختم المنسوب إليه –ﷺ– بأنه نسيان القرآن، وعبارته في ذلك: ينسيك القرآن، والمراد: الرد على مقالة الكفار وبيان

---

(١) الختم والطبع ودلالتهما البلاغية في القرآن الكريم د/ السيد محمد سلام صـ١٩٢،١٩٣بحث منشور ضمن السجل العلمي لندوة " الدراسات البلاغية الواقع والمأمول" بالرياض في الفترة من ٢١-١٤٣٢/٦/٢٢هـ.

(٢) الكشاف ٤٠٧/٥.

إبطالها، وذلك كأنه يقول: وكيف يصح أن تكون مفتريا وأنت من الله بمرأى ومسمع، وهو قادر لو شاء أن يختم على قلبك"(١).

وأحسب أن هذا الوجه الذي ذكره ابن عطية أبرُّ رحما بسياق الآية، وسرُّ ترجيحي له أمران: الأول: أنه يتجاوب مع صدر الآية وختامها، فقد تضمن صدر الآية حكاية ما جاء على ألسنة المشركين عن القرآن بأنه ليس وحيا من عند الله: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ عن طريق هذا الاستفهام الإنكاري التوبيخي، والتعبير بصيغة المضارع؛ للدلالة على أن مقولتهم ما هي إلا ألفاظ رمت بها ألسنتهم دون تفكُّر أو تعقُّل، ومن ثمّ جاء الرد قويا حاسما؛ ليستأصل شأفة هذه المقولة الآثمة عن طريق أسلوب الشرط ﴿**فَإِنْ يَشَأ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ**﴾ ليكون الرد أقوى مما أثاروه، إذ لو صدر من النبي -ﷺ- محض افتراء لمنعه ربُّه عن ذلك، وفى ختام الآية جاء قوله تعالى: ﴿**وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ**﴾ ليؤكد المفهوم السابق بأنه ليس من الافتراء في شيء، وهذا سر بديع من أسرار الإعجاز.

والثاني: أنه يتلاقى مع المفهوم الدلالي لمادة (ختم) وهو بلوغ آخر الشيء والإغلاق عليه على نحو يعطل وظيفته، أو بمنع مجرد نفوذ ما ليس منه إليه، فوقوع الختم على قلب النبي -ﷺ- دلالة على إغلاقه وتعطيل وظيفة تلقى الوحى لديه، وهذا وارد على طريقة الاستبعاد، أي: استبعاد الافتراء من مثله؛ لاستحالة افتراء الكذب على الله مِنْ قِبَلِ مَنْ اصطفاه الله لتلقى وحيه وتبليغه(٢)

والوجهان السابقان نقلهما الشَّيْخ مرجحا رأى ابن عطية، حيث أشار إليهما بقوله: "هذا هو الأصوب، بل الصواب لا ما جزم به النسفي من قبل عن مجاهد، والمقصود من هذا الأسلوب – وأمثاله – تبرئة صاحب الدعوة – ﷺ– مما يرميه به منكرو الرسالة، ولهذا نظائر في القرآن الكريم، منها: ﴿**وَلَئِنْ**

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٥/٣٤،٣٥.
(٢) ينظر: مفهوم الطبع والختم وعلاقتهما بالقلب في القرآن الكريم صـ٢٠٠.

شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] وقوله تعالى:﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾** [الإسراء: ٧٣-٧٥] هذه كلها جزاءات فرضية رُتِّبت على أمور لم تقع منه ﷺ "[١] وبعد هذا الإيضاح نستطيع أن نقول في اطمئنان: إن مادة الخاء والتاء والميم التزم القرآن استعمالها في الذم والمجازاة المؤلمة ولم يشذ منها موضع واحد – حتى آية الشورى– على نحو ما بيّناه، كما أنه لا يجافينا الصواب إذا ادعينا أن المادة لم تتخل عن أصل معناها في سيا قاتها المختلفة.

ويهمني هنا أن أسجل أن الشَّيْخ قبل أن يغادر الصور الفعلية لهذه المادة قد أشار إلى شيء ذي بال كثرت فيه توجيهات العلماء والمفسرين، وهو ورود الختم في الآيات التي عرضناها على سبيل المجاز مرادا به منع تلك القلوب من تسرُّب الهدى إليها، وكأنها مختومة بخاتم حقيقي محكم يحول دون الدخول والخروج، وهو مجاز على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، شبّه فيها المنع المذكور بالختم المادي تصويرا للمعنى المعنوي العقلي بصورة الختم الحسي[٢] والقول في هذا يحتاج إلى تحقيق، وله مكانٌ هو به أشبه.

وبعد أن عرض الشَّيْخ لمادة (ختم) الفعلية بصورها الخمسة فإنه يدلف إلى الصور الاسمية (خاتم – مختوم – ختام) بعد أن قرر التزام القرآن استعمالها في مواضع المدح، وقد جاءت في ثلاث صور واحدة منها في آية الأحزاب، واثنتين في سورة المطففين، أما آية الأحزاب وهي قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٤٠] جاء قوله ﴿**خَاتَمَ**﴾ في ذروة المدح والثناء

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ١٧٦،١٧٧.
(٢) ينظر: السابق صـ ١٧٧.

العطر على صاحب الدعوة-ﷺ- وهنا يلفتنا الشَّيْخ إلى شيء مهم، وهو أن "دلالة ﴿**خَاتَمَ**﴾ هنا على المنع الذى هو أصل دلالة المادة دلالة ظاهرة، حيث إن نبوته -ﷺ- منعت مجيء نبوّات بعده، فهو الرسول النبي المصطفى لجميع العباد من لدن بعثته إلى قيام الساعة؛ لأن رسالته الخاتمة أغنت عن أية رسالات أخرى لاشتمالها على كل الفضائل ونهيها عن كل الرذائل"(١).

وأما آيتا المطففين ﴿**يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٥-٢٦] ففيهما إظهار التفضل على عباد الله الصالحين وإشادة بالجزاء الحسن الذى وعدهم به(٢).

رابعا: ارتباط دراسة المفردات بنظرية النظم

لا شك أن المفردة من حيث هي مفردة لا تظهر دلالتها ولا يتضح معناها إلا داخل النظم الذى تستعمل فيه، فلها عند تعلقها بأختها معانٍ غير الذى يفهمها السامع حال انعزالها عن النظم وانسلاخها عن السياق، وهذا ما نبّه عليه الإمام عبد القاهر في نظريته، فلا اعتداد – عنده – بالكلمة إلا من حيث موقعها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جارتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، ولا اعتداد بالمفردات حال انعزالها وتخليها عن علاقتها ببقية أخواتها، ولكن الجمال يكمن في تناسبها وانسجامها وتعلقها بغيرها، لا من حيث كونها مألوفة مستعملة، أو غريبة وحشية، أو حروفها أخف وامتزاجها أحسن(٣).

التقط الشَّيْخ خيوط هذه النظرية فربط بين مفردات النظم القرآني في سياقاتها المتعددة بالمقصد الذى يرمى إليه الكلام، أو الغرض الذى سيقت من أجله، وأبرز دورها فيه، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه فقال: "إن النظر

---

(١) السابق صـ ١٧٨.

(٢) السابق صـ ١٧٩.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز صـ٤٤ وما بعدها.

في مفردات القرآن على هذا النحو الذى ستقرأه في هذه الدراسة لا يتعارض مع نظرية النظم؛ لأن اختيار اللفظ هو اللبنة الأولى في صرح النظم البديع المعجز، وخطوة أصيلة في فهم الإعجاز النظمي البلاغي الذى يكون في دراسة التراكيب القرآنية، وما تحفل به من سمات إعجازية تالية لا يتوصل إليها إلا من خلال النظر في التراكيب القرآنية وأوضاعها اللغوية من تقديم وتأخير وذكر وحذف وتعريف وتنكير وإظهار وإضمار"[١].

والحق أن ما أشار إليه الشَّيْخ أمرا في غاية الأهمية؛ لأن الكلمة القرآنية – باعتبارها اللبنة الأولى في صرح النظم المعجز – تحتلُّ موقعا مهما في أداء المعنى وتصويره، وتعتبر جزءًا من الكلام المركب، وتكتسب مزّيتها بحسن دلالتها على المعنى من جهة، وبحسن تآلفها ومجاورتها لأخواتها في السياق ذاته من جهة أخرى بحيث يكون لها من الحلاوة والإطراء حظا يثير الحكم بأن لها دخلا كبيرا في الإعجاز.

ومن الألفاظ التي وقف أمامها الشَّيْخ وقفات متأنية لفظ (المرْأَة) و(البَعْل) وتتبّع مواطن ورودهما في نظم القرآن؛ ليظهر أن لهما "استعمالا خاصا فيه اعتبارات بديعة لطيفة حكيمة، هي من سمات إعجاز القرآن البياني اللغوي...وهاتان الكلمتان تحملان من سمات الإعجاز القرآني البلاغي اللغوي ما يدعو إلى الدهش وشدة الإعجاب"[٢]

وبعد استعراض الشَّيْخ لشواهد كلتا الكلمتين في النظم الحكيم يتجه بحثه إلى المقصود الأصلي، وهو معرفة منهج القرآن في إيثار إحدى الكلمتين على الأخرى فيقول: "من النظر في الآيات التي ذكرناها يتبيّن أن القرآن يؤثر أن يطلق على زوجة الرجل كلمة (امرأة) إذا اختلّت عُرَى الحياة الزوجيّة، أيّا كان نوع ذلك الاختلال سواء كان بموت أحد الزوجين كآية الكلالة ﴿**وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ**

(١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ٩.
(٢) السابق صـ ١٦٠ بتصرف.

يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١٢] أو حدث نزاع بين الزوجين سواء أدَّى إلى طلاق أو لم يؤدّ، مثل: ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ [النساء: ١٢٨] أو لاختلاف الدّين بين الزوجين، مثل:﴿**وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ**﴾ [هود: ٨١] لأن امرأة لوط- عليه السلام- كانت على دين قومها، أو كانت العلاقة قائمة على غير دين صحيح، مثل ما جاء عن أبى لهب وامرأته:﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ [المسد: ٤] أو كانت الحياة الزوجية لا إنجاب فيها، كما في قول زكريا - عليه السلام-:﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾ [مريم: ٨]أو كانت المرأة غير ذات زوج، مثل ما جاء في ابنتي شعيب- عليه السلام-﴿**وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣**﴾ [القصص: ٢٣]أو كان الزواج لا مدخل له في المعنى المراد، مثل ما جاء في الشهادة على الدّين:﴿**فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ**﴾ [البقرة: ٢٨٢] فالشهادة تصِحُّ من المرأة سواء كانت ذات زوجٍ أو لم تكن "[(١)].

وبعد أن أثبت الشَّيْخ – من خلال ما ذكره من شواهد قرآنية – توارد ذكر كلمة (امرأة) في نظم القرآن إذا اختلّت عُرَى الحياة الزوجية وتعطّلت آيتها لأي سبب كان فإنه يعمد إلى بيان سرِّ هذا الإيثار فيقول: "والسر في هذا –والله أعلم– أن المرأة أو الزوجة في الحالات التي أشرنا إليها ليست أهلا للوصف بـ (الزوج) أو الزوجة؛ لأن معانى الزوج في اللغة (الاثنان) المضموم أحدهما إلى الآخر، ولذلك سُمّى الزوج زوجا مضموما إلى زوجته، وسمّيت الزّوجة زوجا مضمومة إلى زوجها، وهذا الضم لا يكون على كماله إلا في حالات الوئام التام، والوفاق الكامل، والصفاء الخالص بين عميدى الأسرة، والعقم

(١) السابق صـ ١٦٢.

سواء كان من الرجل أو المرأة أو هما معا يهزُّ العلاقات الزوجية ويوهن الروابط بينهما ويعرض اقترانهما للزوال"[1].

والشَّيْخ في هذا العرض المركّز يستند إلى الدلالة اللغوية لكلمة " زوج " ويعوّل عليها في سِرّ التفريق القرآني بين حال الرجل وزوجه والرجل وامرأته، فالزوجية علاقة ثنائية تدل على قوة الارتباط بين الزوجين فإذا انفكت هذه العلاقة بسقوط مقوماتها لأى سبب كان انتفت صفة الزوجية فيهما، ويضرب الشَّيْخ لذلك مثلا حيّا بما حدث مع نبي الله زكريا – عليه السلام– وقد شكا حاله إلى ربّه من دبيب الشَّيْخوخة إليه وعقم امرأته: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾ [مريم: ٥–٨] قارن هذا بما جاء في سورة الأنبياء: ﴿**وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**﴾ [الأنبياء: ٨٩–٩٠] لقد كانت في سورة آل عمران ومريم ﴿**امْرَأَتِي**﴾ حين كانت عاقرا، أما هنا في الأنبياء فقد أصبحت ﴿**زَوْجَهُ**﴾؛ لأن العقر زال عنها، وأنجبت يحيى – عليه السلام– أرأيت كيف ضنّ القرآن عليها بوصف الزوجية لما كانت عقيما لاتلد؟ وكيف سخا به عليها في (الأنبياء) لما أصلحها الله للإنجاب؟ [2] وبهذا نستطيع أن نقول في اطمئنان: إن التعبير بلفظ (الزّوجة) جاء استجابة لما بُنى عليه نظم القرآن حسبما يقتضيه المقام وترجّحه قرائن الأحوال، فإذا كانت العلاقة الزوجيّة متحققة بين الزوجين عبّر القرآن بلفظ (الزوج) أما إذا انتفت تلك العلاقة بسقوط مقوماتها فإن القرآن حينئذ يلتزم التعبير بلفظ (امرأة) دون لفظ (زوجة) كما بيّنا.

---

(١) السابق صـ ١٦٣.

(٢) السابق صـ ١٦٣.

ولعل فيما سبق ما يشير إلى منهج القرآن في خصوصية التعبير بـ (الزّوج) وإيثاره إياه لكل موضع حَسُنت فيه الحياة الزوجية ولم يعكّر صفوها شيء، وهذا أمر مطّرد في كل سياقات القرآن، وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نعدم وجود بعض الشبهات التي تُثَار حول لغة القرآن، منها شبهات ثلاث عرضها الشَّيْخ وردّها ردًّا قائما على فقه وبصر بأسرار الكتاب المعجز، اتُّهم فيها القرآن بأنه خالف قد هذا المنهج حين أطلق وصف (الزّوْجِيّة) في حالات الشقاق، وذلك في ثلاثة مواضع:

الأول: في حقِّ نساء النبي وقت حدوث الشقاق المشهور بينه وبينهن، ومع هذا قال الله في شأنهن: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [التحريم: ١].

والثاني: في شأن زيد بن حارثة -ﷺ- مولى رسول الله-ﷺ- وزوجه زينب بنت جحش لما دبَّ النزاع بينهما مما أدى إلى الفراق، ومع هذا قيل في شأنها:﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ**﴾ [الأحزاب: ٣٧] فأطلق على زينب وصف (زوجك) ولم يقل (امرأتك).

والثالث: في تسوية النزاع بين المسلمين وبين مشركي مكة بعد صلح الحديبية، فقد وصف النساء اللاتي فارقن أزواجهن بأنهن (أزواج) فقال: ﴿**وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ [الممتحنة: ١١].

أما عن الشبهة الأولى فقد عالجها الشَّيْخ بما يُحتم التعبير بما جاء عليه النظم؛ لاقتضاء المقام ذلك، فالاختلاف الذي وقع للنبي -ﷺ- مع زوجاته لم اختلافا ذا خطر، بل كان الوفاق الخالص هو الذي يسود العلاقات بينه وبينهن، بدليل أنه-ﷺ- حرّم على نفسه بعض ما أحلّه الله له تطييبًا لمشاعرهن وتودُّدًا إليهن.

وأما الشبهة الثانية فقد ردّها الشَّيْخ بما يتلاءم مع واقع الحال، فالتعبير بـ ﴿زَوْجَكَ﴾ هو المطابق لمقتضى الحال، وهو الأمر بالإمساك وإبقاء الحياة الزوجية قائمة، فكأنه –ﷺ– اعتبر النزاع الدائر بين زيد وزينب كأن لم يكن، ولو قال: (أمسك عليك امرأتك) لكان هذا تسليما منه بنتيجة النزاع وهو التطليق، فكلمة ﴿زَوْجَكَ﴾ أرأب للصدع من كلمة (امرأتك) بلاغيا.

وأما الشبهة الثالثة التي جاءت في وصف النساء المفارقات لأزواجهن في آية الممتحنة فقد أرجع – في ردّها – اختيار كلمة (أزواج) إلى تعسُّر النطق بجمع امرأة، فيتعين التعبير عن هؤلاء النسوة بـ (أزواج) لأنهن جمع، ولم يقل: امرآتهم جريا على منهجه في المفرد؛ لأن هذا الجمع غير مستعمل في فصيح اللغة، فضلا عن ثقله وخشونة جرسه[1] والحق أنني لم أجد لهذا التعليل من قبول النفس ما وجدته في تَعْلِيلَيْه السابقيْن؛ لأن النظم الحكيم يضع المناسبة المعنوية فوق الأغراض اللفظية.

وبنظرة متأنية في سبب نزول الآية يتضح لنا دقّة النظم الحكيم في اصطفاء هذا اللفظ دون غيره، فقد نزلت هذه الآية في اللاتي ارتددن من نساء المهاجرين ولحقن بالكفار، وهنّ ست كما ذكر الزمخشري وغيره، حيث أمر الله تعالى المؤمنين أن يدفعوا لمن فرّت زوجته من المسلمين – ففاتت بنفسها إلى الكفار وانقلبت من الإسلام – مثلَ مهرها من الفيء والغنيمة إذا لم يرُدّ عليه المشركون مهرها؛ تغليظا وتشديدا في ألا يغادر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر غير معوض منه، على نحو ما ذكر الزمخشري[2] ومن ثمّ فإن التعبير بالأزواج – هنا– فيه ترقيق لقلوبهن، وتذكيرٌ لهنّ بصفاء الحياة الزوجية في ديار الإسلام، وحثٌّ على استكمال عُرى الحياة الزوجية تحت مظلة الإسلام والله أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١٦٥،١٦٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٩٨/٦، والبحر المحيط ٢٥٤/٨.

أما كلمة (بَعْل) فقد خصّها الشَّيْخ بمزيد عناية ووافر الاهتمام؛ فهي قسيم كلمة (زَوْج) في استعمال القرآن لهما، ولكلّ منهما مقتضياته ودواعيه التي ترجحه دون غيره، يقول الشَّيْخ : "لما ضَنّ القرآن بإطلاق كلمة (زَوْج) على الزوجة في حالات تدهور العلاقات الشخصية، وأطلق عليها كلمة (امرأة) ضَنّ كذلك على الزوج الذكر بإطلاق كلمة (زَوْج) عليه، ثم أطلق عليه كلمة (بَعْل) والآيات التي وردت فيها كلمة (بَعْل) لا تخلو آية واحدة مما يهدد الحياة الزوجية من شقاق بين الزوجين، أو سوء معاملة من الزوج للزوجة، أو سلوك شائن من الزوجة ينافى قدسية الحياة الزوجية"(١).

ويستعرض الشَّيْخ نماذج من استعمال القرآن لهذه الكلمة، ويعلّق عليها بما يجلّي خصوصيتها، ويكشف عن سرِّ استعمالها في مواطنها التي وردت فيها، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ [النساء: ١٢٨] يقول الشَّيْخ: " فهنا توجس وخيفة وقلق من جور زوجها، لذلك صارت (امرأة) مضنونا عليها بكلمة (زوجا) أو (زوجة) وصار زوجها (بعلا) مضنونا عليه بكلمة (زوج)"(٢).

ويستعرض مثالا آخر، وهو قوله تعالى في شأن إبراهيم–عليه السلام–وزوجه سارة:﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾ [هود: ٧٢] فيقول: " لأن الشَّيْخوخة تمنع الإنجاب عند الزوجين؛ لذلك صار الزوج (بعلا) والعقم من شأنه تقويض الحياة الزوجية، أو جعلها كأنها لم تكن قط؛ لعدم حصول ثمارها وهى ولادة الأولاد(٣).

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١٦٥،١٦٦.
(٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١٦٧.
(٣) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١٦٧.

أما قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١] فأطلق على الأزواج (بعولة) جمع (بعل)؛ لأن المقام فيه مخالفة من الزوجات، وهي النظر إلى غير أزواجهن وإظهار زينتهن لغيرهم بدليل أمرهن بغض أبصارهن، وحفظ فروجهن، ونهيهن عن إبداء زينتهن لغير محارمهن: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ** ﴾ [النور: ٣١] والشيء لا يؤمر به في القرآن إلا إذا كان معدوما، ولا ينهى عنه إلا إذا كان موجودا؛ لذلك – والله أعلم– أطلق على الأزواج الذكور هنا (بعولة) والوصف بمجرد المرأة فيه تجريد من المعاني الإضافية التي تستلزمها كلمة (الزوج) أو (الزوجة) وبمجرد (البعل) فيه تجريد من المعاني الإضافية التي تستلزمها كلمة (الزوج) ولكأن القرآن ببلاغته العالية وبيانه المعجز يشير إلى انعدام الروابط الزوجية – كما ينبغي أن تكون – وهو يطلق على الزوجة (امرأة) وعلى الزوج (بعلا) حين يقتضى هذا الإطلاق – بنوعيه – داع من الدواعي التي أشرنا إليها من قبل مما يعكر صفو الحياة الزوجية[1].

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ١٦٨.

الخـــــــاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد حاولت هذه الدراسة أن تبرز جهود الشَّيْخ في الكشف عن إعجاز القرآن وتجلّى منهجه في كتابه، وهو منهج فريد اتّسم بالأصالة والمعاصرة، أخضع الشَّيْخ سمات التجديد في دراسة مفردات القرآن لموروثنا البلاغي حتى أضحت خيوطا أصيلة في نسيجه، ومن خلال تتبعنا للمحات الشَّيْخ استطعنا – بفضل الله – أن نصل إلى مجموعة من النتائج؛ أهمها:

أولا– أن الشَّيْخ شديد الانتصار لتراث أمته والإشادة به، فهو عارفٌ بمكانته مطلعٌ على كنوزه ولآلئه، يظهر هذا جليّا من خلال استئناسه بآراء العلماء والاهتداء بأقوالهم بعد أن ألبسها أثوابا قشيبة يزدان بها الدرس البلاغي المعاصر فأصبحت تتلاءم مع روح العصر وتفي بمتطلباته.

ثانيا– أنّ الدراسة غلب عليها الطابع المعجمي، ومع ذلك فقد انتهجت نهجا موضوعيا في مجال الإعجاز؛ إذ عالجت إيثار القرآن في استعمال كلماته وانتخاب مفرداته من خلال الموازنة فيما يُشاع فيه الترادف في غير القرآن، وهذا يعدّ – فيما أرى – تطبيقا حيّا وخروجا بالبلاغة من جفاف النظرية إلى خصوبة التطبيق.

ثالثا– كشفت الدراسة عن ذلك التآزر العجيب بين اللفظة القرآنية الواحدة في مطارحها المتعددة وسياقاتها المختلفة، فكل مادة قرآنية لها معنى رئيس تغرّد حوله في جميع سياقاتها، وهناك وحدة معنوية تربطها بجميع مشتقاتها في سائر سور القرآن، تجلّى ذلك بوضوح في استخدام القرآن لمادة: (خَتَم) وتتبُّع دورانها بين الاسمية والفعلية في لغة القرآن، واستكشاف أواصر الترابط وعلائق الأنساب بين معانيها.

رابعا– للسياق أثرٌ بالغ في اصطفاء الألفاظ وتخيّر المفردات؛ مما يبرهن أنه من المحال بلاغة وضع لفظة مكان أخرى، فكل لفظةٍ وُضعت في موضعها الأشكل لها والأخص بها، بحيث إذا أُبْدِلت بأخرى على – حدّ تعبير الإمام الخطابي – لتبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، أو ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة؛ وقد بدا ذلك واضحا فيما عرضنا من تناول الشَّيْخ لفعل الأمر (أقبل) والموازنة بينه وبين الفعل (ائت) أو (تعال) وكشفه عن دلالاتها الخفية التي تستكنّ وراء التعبير بها.

خامسا – لم يعتمد الشَّيْخ حصر اشتقاقات المادة الواحدة في النظم الحكيم، وإنما تتبّع مواضع ورودها في غالب استعمالاتها القرآنية، وكذلك لم تستوعب دراسته كل المواد القرآنية التي يُظنُّ بها الترادف، فهناك مواد أخرى؛ مثل: الخوف والخشية، والشح والبخل، والقعود والجلوس، وعفا وصفح، والسيئة والذنب، والضلال والمعصية، والفسق والفجور، وغفر وتاب، وغيرها من ألفاظ يكاد يكون استعمالها واحدًا، وتحظى بقدر هائل من الشيوع والاستعمال المتماثل في دنيا الناس.

سادسا– بعد كل هذه الوقفات في محاولتنا لرصد منهج الشَّيْخ فإننا نستطيع القول بأن منهج الشَّيْخ يبعث على تذوق البيان القرآني في استخدام مفرداته؛ ولذا فهو يعد ميدانا خصبا للدراسات البلاغية؛ ولهذا فإني أُهيب بالدارسين أن يتأملوا كتب الشَّيْخ ويتفقدوا آراءه المبثوثة في أسفاره، كأن تدرس – مثلا – ملامح التجديد البلاغي عند الشَّيْخ في دراسته للاستفهام القرآني، ودراسته للمجاز، وعلى غرار ذلك رؤيته للإبداع ومصادره، ورؤيته للحداثة وغيرها من قضايا بلاغية ونقدية عرضها الشَّيْخ بأسلوبه الماتع وحاسته المتذوقة.

وأخيرا فإني آمل أن تكون هذه الدراسة قد حقّقت بعض ما هدفت إلى تحقيقه، والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أهم المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن بتحقيق عبد الرؤوف سعد، ط المكتبة التوفيقية.
٢- الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية د/عبد الله عبد الغنى سرحان نشره مركز تدبُّر للاستشارات التربوية والتعليمية، ط الأولى ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.
٣- أسرار التكرار في القرآن المسمى "البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان" للكرماني، بتحقيق/ عبد القادر أحمد عطا، ط دار الفضيلة.
٤- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم د/محمد الأمين الخضري مطبعة الحسين الإسلامية ط الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م
٥- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل نافع بن الأزرق د/ عائشة عبد الرحمن، ط دار المعارف سنة ١٣٩١هـ١٩٧١م.
٦- الإعجاز في دراسات السابقين، للأستاذ/ عبد الكريم الخطيب دار الفكر العربي، ط الأولى ١٩٧٣م.
٧- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي، ط دار الكتاب العربي بيروت ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.
٨- البحر المحيط لأبى حيان بتحقيق/عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية ط الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
٩- بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصري، بتحقيق د/ حفني شرف، ط نهضة مصر.
١٠-البرهان في علوم القرآن للزركشي، بتحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعرفة بيروت ١٣٩١هـ.
١١-البلاغة تطور وتاريخ د/شوقي ضيف، دار المعارف، ط التاسعة.

١٢-البيان والتبيين للجاحظ، بتحقيق/ عبد السلام هارون، مكتبة الخارجي بالقاهرة، ط السادسة ١٤١٨هـ١٩٩٨م.
١٣-تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، بتحقيق /السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، ط الثانية ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.
١٤-تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، بتحقيق/ على هلال مطبعة الكويت ط الثانية ٢٠٠٤م.
١٥-التحرير والتنوير للعلامة ابن عاشور، ط الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.
١٦-تفسير أبى السعود بتحقيق/ عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة.
١٧-التفسير الكبير للفخر الرازي، دار الفكر العربي، ط الاولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م،
١٨-جماليات المفردة القرآنية د/أحمد ياسوف، دار المكتبي للطباعة، ط الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
١٩-حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، ضبطها عبد الرازق المهدى، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
٢٠-الختم والطبع ودلالتهما البلاغية في القرآن الكريم د/ السيد محمد سلام بحث منشور ضمن السجل العلمي لندوة الدراسات البلاغية الواقع والمأمول بالرياض في الفترة ٢١-١٤٣٢/٦/٢٢هـ.
٢١-دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في تطبيق اللغة د/ عبد العظيم المطعني، مطبعة وهبة، ط الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٢٢-دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني د/ محمد ياس خضر الدُّوري، دار الكتب العلمية، ط الثانية ٢٠١٤م.

٢٣-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، بتعليق الشَّيْخ محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢.

٢٤-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، ط دار إحياء التراث العربي.

٢٥-الريح لأبى عبد الله الحسين بن خالويه، قدّم له د/ حسين محمد شرف، ط الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

٢٦-غريب الحديث للإمام الخطابي، بتحقيق /عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، نشر معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى، ط الثانية ١٤٢٢هـ٢٠٠١م.

٢٧-الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري، بتحقيق/ محمد إبراهيم سليم، ط دار العلم والثقافة للطباعة والنشر.

٢٨-في البلاغة القرآنية أسرار الفصل والوصل د/ صباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، ط الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢٩-الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل للزمخشري، شارك في تحقيقه د/ فتحي عبد الرحمن حجازي، مكتبة العبيكان، ط الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

٣٠-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، بتحقيق/عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

٣١-معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، ضبطه/ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٣٢-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه/محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الكتب المصرية ١٣٦٤.

٣٣-المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، بتحقيق محمد سيد كيلاني، ط دار المعرفة بيروت.

٣٤-مفهوم الطبع والختم وعلاقتهما بالقلب في القرآن الكريم د/نجيب بنعبد الله المدغري، مقال اجتزأه صاحبه من أطروحته للدكتوراه "مفهوم القلب في القرآن الكريم بإشراف الدكتور/ الشاهد البوشيخي.

٣٥-مقاييس اللغة لابن فارس، بتحقيق /عبد السلام هارون، دار الفكر ط الأولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٣٦-ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، بتحقيق/ سعيد الفلاّح، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى ١٤٠٣هـ ٢٠٠٧م.

٣٧-من أسرار الإعجاز القرآني صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر بالرياض، طبعة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٣٨-من بلاغة القرآن د/ أحمد بدوي، ط نهضة مصر ٢٠٠٥م.

٣٩-النبأ العظيم نظرات جديدة في إعجاز القرآن، د/محمد عبد الله دراز، طبعة دار القلم بالكويت.

٤٠-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي، ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

٤١-النكت في إعجاز القرآن للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، بتحقيق /محمد خلف الله، ود/محمد زغلول سلاّم دار المعارف ط الرابعة.

٤٢-وراء مواضعها وأسرارها في نظم القرآن الكريم د/إبراهيم صلاح الهدهد، بحث مستل من حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة في عددها الثالث عشر ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.